

لُزُوعُ مَا قِيلَ فِي الْحَدِيثِ

إعداد
إسماعيل ناصيف



لُزُومُ مَا قِيلَ
فِي
الْحَدِيثِ

لِإِسْمَاعِيلِ نَاصِفِ

وَلِلْإِسْمَاعِيلِ
بَيْرُوتَ

فهرس المحتويات

الصفحة	
٥	مقدمة
	القسم الأول: المديح وتطورّه
٧	في الأدب العربي
٩	الفصل الأول: المديح وعوامل نشأته .
٩	١ - التعريف بالمديح
١٠	٢ - المديح في الأدب العربي
١١	٣ - عوامل نشأة شعر المديح
	الفصل الثاني: تطور المديح في
١٣	الأدب العربي خلال العصور .
١٣	١ - في الجاهلية
١٤	٢ - في صدر الإسلام
١٥	٣ - في العهد الأموي
١٦	٤ - في العهد العباسي
١٧	٥ - بعد العهد العباسي
	القسم الثاني: أنواع المديح
١٩	بحسب الممدوحين
	الفصل الرابع: المديح الديني
٢٣	١ - مدح الله عزّ جلاله
٢٤	٢ - المديح النبوي
٢٥	٣ - مديح آل البيت
٢٨	حسن بن ثابت في مدح النبي (ﷺ)
٣١	كعب بن زهير في مدح النبي (ﷺ)
٣١	بانة سعاد
٣٤	أحمد شوقي في المديح النبوي
٣٤	الهمزية النبوية
٤٤	ذكرى المولد
	الفصل الأول: مديح الملوك
٥٠	والخلفاء
٥٣	الأخطل في مدح عبد الملك بن مروان .
٥٦	جرير في مدح عبد الملك بن مروان .
٥٨	أبو نواس في مدح هارون الرشيد
٦٢	أبو تمام في مدح المعتصم
٦٥	أبو تمام في مدح المعتضد بالله
	علي بن الجهم في مدح المتوكل

أمين نخلة في مدح بشارة الخوري ١٠٦

الفصل الخامس: مديح الأوطان

والبلدان ١٠٩

١ - مديح الأوطان ١٠٩

٢ - مديح البلدان ١١١

القسم الثالث: متفرقات مدحية ١٢٣

ملحق: فصول من كتاب « اللطائف
والظرائف » للثعالبي في مدح

بعض الصفات المعنوية ١٤٧

باب مدح العقل ١٤٩

باب مدح الأدب ١٥٠

باب مدح الشعر والشعراء ١٥١

باب مدح التجارة ١٥٢

باب مدح القناعة ١٥٣

باب مدح الصمت ١٥٤

باب مدح الصبر ١٥٤

باب مدح الحلم ١٥٥

باب مدح المشورة ١٥٦

باب مدح التآني ١٥٧

باب مدح الشجاعة ١٥٨

باب مدح الجود ١٥٨

العباسي ٦٦

البحثري في مدح المتوكل على الله ٦٧
حافظ إبراهيم في مدح عمر بن

الخطاب ٦٩

صفى الدين الحلبي في مدح الملك

الناصر ٧٧

ابن عمار في مدح المعتضد بالله ٨١

الفصل الثاني: مديح الأمراء

والوزراء والوجهاء ٨٣

الفرزدق في مدح زين العابدين ٨٦

المتنبي في مدح سيف الدولة الحمداني . ٨٩

أبو تمام في مدح الحسن بن سهل ٩٢

ابن خفاجة الأندلسي في مدح الأمير

أبي يحيى بن إبراهيم ٩٣

ابن الأزرقي الأندلسي في مدح الرئيس

أبي يحيى بن عاصم وتهنئته ٩٥

الشيخ ناصيف اليازجي في مدح

أسعد باشا ٩٧

الشيخ إبراهيم اليازجي في مدح

صبحي باشا ٩٩

الشيخ خليل اليازجي في مدح

الخديوي توفيق ١٠١

الفصل الثالث: مديح العلماء

والأدباء ١٠٣

مقدمة

« وما الشعر إلا من الشعور، بل هو الشعور ذاته
تفيض به النفس، فيتحد بنغم يوقعه الشاعر على
أوتار قلبه، ويحمله على أجنحة مخيلته، فيولد ما
يدعونه القصيدة ».

فؤاد أفرام البستاني

تضمّ هذه السلسلة أروع ما قيل في الأدب العربيّ، وخاصة الشعر منه، في
الغزل، والمدح، والهجاء، والرثاء، وغير ذلك من أغراض الشعر الغنائيّ المختلفة.

وقد حاولتُ في اختياري القصائد والمقطوعات الشعريّة التي أثبتتها في هذه
السلسلة أن أنوّع في الموضوعات، والعصور، والأدباء، والأفكار، والصّور
الشّعريّة، فيأتي كلّ كتاب من هذه السلسلة بستاناً نظيراً بما يحوي من ثمار شهية
متنوّعة، وأزاهير فوّاحة مختلفة الألوان.

واعتمدتُ في الاختيار على ذائقتي الأدبيّة، وعلى ملاحظات بعض الأصدقاء
الأدباء واختياراتهم. فإنّ كان ما تتضمنه هذه السلسلة لا يمثل أحلى الكلام، فهو،
على الأقلّ، من أحلى الكلام، أو أحلى ما استطعتُ الوصول إليه. وبديهيّ القول
إنّ الإحاطة بما صدر عن الأدباء العرب من حُلُو الكلام على اتّساع رقعة انتشار
اللغة العربيّة، وفي امتداد تاريخيّ يقارب الألف وخمسمئة سنة تقريباً، أمر
يستحيل على جمهرة من الأدباء يسلخون قسماً من أعمارهم في جمع أشعار العرب
ونشرهم، ثمّ يختارون أفضله وأحلاه. ولذلك نرى أنّ كلّ من كتب كتاباً لكتب
هذه السلسلة، أو جمع مختارات من أشعار العرب كما فعل أبو تمام في كتابه
« ديوان الحماسة »، والعماد الدكتور مصطفى طلاس في كتابه « شاعر وقصيدة »

قد أثبتَ أفضل ما تحصّل لديه دون أن تكون محصلته الأدبيّة، هي بالضرورة،
الأفضّل والأروع.

وليس لي في هذه السلسلة سوى فضل « الجمع » و« الاختيار »، و« التنسيق ».
أمّا « الجمع » فقد اقتضى أن أعيش مدّة من الزمن بين التصانيف الكثيرة، حتّى
إذا وقعتُ على قصيدة جميلة، أو مقطوعة شعريّة حلوة، أو فكرة عميقة صيغتُ
بأسلوب فنّي مُمتّع، رأيتني أضمتها إلى أخواتها، ثم اخترتُ ما ظننتُ أنّه أفضله،
وليس أصعب من أن تختار بعض أزاهير البساتين لتقدّمها على أنّها تُمثّل البساتين
تمثيلاً دقيقاً.

وتضم هذه السلسلة الكتب التالية:

- ١ - أروع ما قيل في الحبّ والغزل.
- ٢ - أروع ما قيل في الرثاء.
- ٣ - أروع ما قيل في الهجاء.
- ٤ - أروع ما قيل في المدح.
- ٥ - أروع ما قيل في الحكمة.
- ٦ - أروع ما قيل في الزهد.
- ٧ - أروع ما قيل في الوطنيّات.
- ٨ - أروع ما قيل في الخمر واللّهو والمجون.
- ٩ - أروع ما قيل في الفخر والحماسة.
- ١٠ - أروع ما قيل في الوصف.
- ١١ - أروع ما قيل من الموشّحات.

وبعد، أرجو، أيّها القارئ العزيز، أن تعجبك هذه السلسلة بما اخترته لك
فيها من أروع ما قيل في أدبنا العربيّ.

والله وليّ التوفيق
المؤلف

القسم الأول :

المديح وتطوّره في الأدب العربيّ

الفصل الأول :

المديح وعوامل نشأته

١ - التعريف بالمديح :

هو فنّ من فنون الشعر الغنائيّ يقوم على عاطفة الإعجاب، ويعبّر عن شعور - تجاه فرد من الأفراد، أو جماعة أو هيئة - ملّك على الشاعر إحساسه، وأثار في نفسه روح الإكبار والاحترام لمن جعله موضع مديحه. وفي هذا الفنّ من الشعر تعداد للمزايا الجميلة، ووصف للشمائل الكريمة، وإظهار للتقدير العظيم الذي يكتّنه الشاعر لمن توافرت فيهم تلك المزايا وعرفوا بمثل هاتيك الصفات والشمائل.

والمديح من أقدم الفنون الأدبيّة، عرفتة الشعوب البدائية يوم رفعت إلى الآلهة صلواتها وقدّمت القرابين إلى أصنامها ووضعت نفسها تحت وصاية زعمائها وأبطالها. فمنذ فجر التاريخ أحسّ الإنسان بالفوارق الاجتماعية بينه وبين أخيه الإنسان، ورأى الأقدار تضع وترفع وتعطي وتمنع، لذلك سعى إلى إرضاء من هم فوقه، وتجمّل حيالهم بالقول، فوقف منهم موقف الاحترام والتودّد. وسواء أكان هذا المديح صادرًا عن قرارة نفسه أم من أطراف لسانه فهو يعترف بالأفضليّة لمن يتصوّر أنّهم سبقوه بالغنى أو الشجاعة والقوة أو الفهم والذكاء.

ونظرة المادح إلى الممدوح تشترك مع الناس جميعًا في النظر إلى الزعيم والقائد والوجيه والغني والأمير نظرة خاصة فيها الكثير من الإجلال والإكرام؛

يعبر فيها صاحبها عن ذاته بما يتوافر لديه من ضروب القول والحديث والبيان شعراً ونشراً .

ولسنا ندري كيف جاءت المدائح الأولى عند الإنسان الأول، ولكنّ النقوش القديمة تحمل على صفحاتها الحمد والثناء لأشخاص وجماعات وتشيد بالقوادر أو الملوك وتتحدث عن انتصاراتهم ومواهبهم، وتمنحهم ألقاباً ونعوتاً وصفات تسمى، في عرفنا اليوم، مدائح. فقد نشأ الإنسان على خوف من القوة والبطش فلذلك رأيناه يمجّد البحر والرعد والأسد والمطر والشمس والقمر والنار ويتوجّه إليها خاضعاً خاشعاً مبدئياً إعجابه. وسرعان ما اكتشف فكرة الإله، فجعل لكلّ شيء إلهاً، في بادئ الأمر، ثمّ توجّه إلى الآلهة بصلواته وعبادته وتضرّعاته فغدت هذه كلّها مدائح، إلى أن اكتشف فكرة الإله الواحد فأصبحت مدائحه صلاة.

وهذا النوع من المديح عرفناه عند المصريين القدامى مكتوباً على ورق البردى يتوجّه فيه الفلاح المصريّ إلى سيّده الفرعون، كما عرفناه عند أهل الصين القدامى في كتبهم الدينيّة وملاحمهم مثل كتاب كونفوشيوس أو «الماها بهارتا» أو «راميانا». وعرفنا هذا المديح أيضاً عند الفرس في كتابات زرادشت كما عرفناه في التوراة والتلمود ولا سيما في مزامير داود. وقد استمرّ هذا المديح عند اليونان، نراه جليّاً في الإلياذة والأوديسة وفيه تمجيد للقوّة والشجاعة والبطولة، وإشادة بالخير والعدل والحقّ. ولما جاء القرن الخامس عشر قام الانكليز والفرنسيون على لسان شعراء «التروبادور» منهم، يمجّدون البسالة والشجاعة وكرم الأخلاق، ولم يتخلّف عنهم الألمان والأسبان في مدح الزعماء والقوادر والملوك.

٢ - المديح في الأدب العربيّ:

ذكرنا أنّ الأمم جميعاً كانوا يكرّمون عظماءهم في أمور الدين والدنيا على السواء، وسنحاول في تلك الفقرة أن ننظر كيف كان العرب يرسمون إعجابهم

وتقديرهم حينما كانوا يتوجهون إلى مادحيهم.

يعتبر المديح أبرز الفنون الشعرية عند العرب على الإطلاق، رافق الشعر منذ نشأته الأولى كما يرافق الوتر العود. فعلى الرغم من التطورات التي طرأت على العملية الشعرية ومن التبديل الذي أصاب الشعر من حيث المفاهيم والمقاييس، فإن المديح لم يغيب في يوم من الأيام عن مسرح الشعر. بل ظلّ هو الأصل وسائر الفنون الشعرية هي الفرع. يتناوله الشعراء ويصرفون إليه كلّ عناية واهتمام كأنه استقرّ في أذهانهم أنّ الشاعر خلق ليكون مداحًا، فإذا نظم شعرًا في غير المدح كان كالرامي الذي يرمي سهامًا طائشة بعيدة عن إطار هدفها. من هنا كان حلم كلّ شاعر أن يسخر عبقريته في هذا الاتجاه فيجعل شعره بابًا للرزق ومفتاحًا للثروة، حتى طبع الأدب العربي بطابع المديح وبات من الصعب أن نجد شاعرًا عربيًا من العباقرة لم يصطنع المديح، لدرجة أن امتلأت الدواوين بهذا اللون وغدت قصائدها تشكّل القسم الغالب في نتاج الشعراء.

٣ - عوامل نشأة شعر المديح:

نشأ فن المديح عند العرب، لا بدافع الكسب والتزلف أوّل الأمر، بل إعجابًا بالفضيلة وثناء على صاحبها، واهتزازًا أمام النبل والأريحية، وإكبارًا للمروءة والشجاعة. وقد كان لطبيعة الحياة الجاهلية ونظم المعيشة آنذاك أبلغ الأثر في شيوع هذا الفن وانتشاره، والإنسان مفطور على حب الإطراء مهما يكن قسطه من الفهم والعظمة، ومفطور أيضًا على المجاملة تقريبًا من الناس واكتسابًا لودّهم.

والبدوي خاصة، ذاتي في تصرفاته ومشاعره، شديد اليقظة والالتفات إلى ما يمسّ فرديته، مرهف الحساسية، سريع التأثر. فكان بسبب ذلك معتدًا بنفسه، غيورًا على شرفه وعرضه، وعلى ضيفه وعلى من يستجير به، حريصًا على الظهور أمام الناس بمظهر الرجل المحترم، والبطل الشجاع، والكريم الأبّي، يُمتدح بين القوم، ويشنّى على خصاله وفعاله.

وكان من أثر النظام القبليّ آنذاك أن أخذ الشعراء يمتدحون شيوخ القبائل والأبطال فينسبون إليهم فضائل ذلك العصر من تسامح وحلم وحكمة وكرم ومروءة وإباء وأنفة وعدل وشجاعة وما إلى ذلك. ومما زادهم إقبالاً على مديح الزعماء، ما كان يحدث بين القبائل من تنافس في الشعر، فكلّ قبيلة تجرّد شاعرها للذود عنها وامتداح قوّادها وأبطالها والتغني بمآثرهم.

ومن عوامل انتشار المديح في العصور الأدبيّة الأولى، وفي مجتمعات الصحراء، تلك المقدّسات التي كانوا يلتزمون بها من ضيافة ونجدة وحسن جوار وثأر والتي كان يلتزم بها كلّ عربيّ ويؤدي فروضها كاملة مهما يكن شأنه. وكان قضاء هذه الموجبات يترجم في معظم الأحيان مديحاً للغير أو فخراً بالذات. ونتيجة لذلك كان المديح في أوّل عهده مدرسة أخلاق تعمل على بلورة المثل العليا وترسيخها، وحضّ الناس على تشجيعها واحتمال كلّ ما تتطلبه من حزم وصبر وشدّة، وهم عندما يتوجّهون إلى ممدوح تتوافر فيه هذه الفضائل إنّما يجعلونه مثلاً يحتذى ورجلاً كاملاً تتجسّد في شخصه هذه المثل والفضائل وتبلور.

الفصل الثاني

تطور المديح في الأدب العربيّ خلال العصور

١ - في الجاهليّة:

بدأ المديح في الجاهلية شعراً يقال في مناسبات لا يستطيع المال أن يفيها حقّها. فكان إقراراً بفضل أو إمعاناً في شكر أو تقديرًا لموقف، وكان الشاعر يجد نفسه منساقاً إلى التعبير عن مشاعره دون أن يبتغي جزاء أو معروفاً وكأنّه شاهد حقّ، وكان الناس يأخذون شعره دليلاً يتناقلونه للتأكيد على قرب الممدوح من الفضيلة أو ابتعاد المهجوّ عنها. وكان الشعر الجيّد من هذا المديح يتحوّل إلى أمثال سائرة يتناقلها الناس جيلاً عن جيل. فقد قال امرؤ القيس بيتاً يمدح فيه بني تيم قوم المعلّى الذي أحسن إليه وأجاره حين طلبه المنذر بن ماء السماء:

أقرّ حشا امرئ القيس بن حجرٍ بنو تيم مصابيح الظلام

ف قيل لبني تيم « مصابيح الظلام » مند ذلك اليوم.

وخير دليل على ابتعاد ذلك الشعر عن المادّة ديوان زهير بن أبي سلمى الذي يدور أكثره على مدح هرم بن سنان والحرث بن عوف وغيرهما لوقفهما حرب داحس والغبراء بين قبيلتي عبس وذبيان ودفعهما ديات القتلى من الطرفين والتي بلغت ثلاثة آلاف بعير.

ولم يتحوّل الشعر إلى أداة للتكسّب إلا حين لذّ لجماعة من الممدوحين أن

يقال فيهم ما يرضي كبرياءهم وغرورهم، ويستجيب لنزوات الأنانية لديهم، فعمدوا إلى الأموال والهدايا يصدقونها على الشعراء يستحثون قرائحهم لنظم الأشعار في التغني بأعمالهم. وكان نتيجة لذلك أن ذاق الشعراء حلاوة العطاء، فانشغلوا به عن كل شيء، وسهل عليهم أن ينظموا قصيدة من بضعة أبيات من الشعر ليتقاضوا لقاءها مبلغاً من المال يسد حاجتهم لفترة طويلة. وقد روى ابن رشيق عن النابغة الذبياني قائلاً: « كانت العرب لا تتكسب بالشعر... حتى نشأ النابغة الذبياني، فمدح الملوك، وقبل الصلة على الشعر، وخضع للنعمان بن المنذر، فسقطت منزلته، وتكسب مالا جسيماً حتى كان أكله وشربه في صحاف من الذهب والفضة وأوانيهِ من عطاء الملوك ».

وإذا جاز لنا الشك بأن النابغة لم يكن أول المتكسبين بشعرهم، لا يسعنا إلا الاعتراف بأنه كبير شعراء التكسب في العصر الجاهلي، فكان أول الذين مهّدوا سبيل التكسب لمن جاء بعده من الشعراء. والذي لا يرقى إليه شك هو أن النابغة هو أول الشعراء الكبار الذين درّ عليهم شعرهم الثروة والنعيم. ومهما يكن من أمر التكسب بالمديح في الشعر الجاهلي فإنه ظلّ على شيء من عفة النفس، بعيداً عن صراحة السؤال، ولا سيما عند زهير وطرفة والحطيئة. وإذا كان الأعشى قد شدّ عن هذه القاعدة، إضافة إلى النابغة، فإنّ الغالب على الشعر الجاهلي يظل بعده عن التكسب.

٢ - في صدر الإسلام:

ولما جاء الإسلام خفت الشعر بصورة عامّة، عدا شعر الكافرين الذين راحوا يناضلون الرسول، فاضطرّ النبيّ إلى الردّ عليهم بسلاحهم، فكان حسّان بن ثابت من الشعراء الذين تبعوه ووقفوا إلى جانبه مدافعين عنه وعن الدين الجديد. وقد رفض النبيّ أن يمدحه الشعراء إلا بما يتّصف به ويدعو الناس إلى اعتناقه، من فضائل تصب في خدمة الدين ومصلحة الرسالة التي نذر نفسه لأدائها. فالمديح

مقبول، برأي النبيّ، ما دام صادقاً ويرمي إلى غاية سامية، وما دام لا ينجم عنه إلا الخير. أمّا إذا تحوّل إلى نفاق، فأقلّ ما يستحقّه المدّاح هو أن يحثى في وجهه التراب. وقد تدهورت منزلة المديح منذ بداية الاسلام نتيجة لتلك التطوّرات، وفي ذلك يقول صاحب العمدة: « كان الشاعر في مبتدأ الأمر أرفع منزلة من الخطيب، لحاجتهم إلى الشعر في تخليد المآثر. فلما تكسّبوا به، وجعلوه طعمة، وتولّوا به الأعراض وتناولوها، صارت الخطابة فوقه. وعلى هذا المنهاج كانوا، حتى فشت فيهم الضراعة، وتطعموا أموال الناس، وجشعوا فخشعوا، واطمأنت بهم دار الذلّة، إلا من وقر نفسه وقارها ».

وهكذا كان الشاعر المتكسّب محتقراً عهد النبي والخلفاء الراشدين. فكان عمر بن الخطاب لا يكثرث للمديح وقد صرف همه إلى تركيز الوحدة القومية والخروج بها وبالدين إلى ما وراء حدود الجزيرة العربيّة. وكان علي بن أبي طالب لا يرضى التزلف الذي يأتيه الشعراء في مدائحهم وهو القائل لأحدهم وقد أطل في الكلام وأثنى: « يا هذا أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك ». وكان الخلفاء الراشدون يرون أن قيمة الشعر لا تقدّر بمال، يدلّ على ذلك ما ذكر عن عمر بن الخطاب من أنّه لقي ذات يوم ابنة الشاعر زهير بن أبي سلمى، فسألها: « ما فعلت بحلل هرم بن سنان التي كساها أباك؟ » فقالت: « لقد أبلاها الدهر ». قال: « ولكن ما كساه أبوك هرمًا لم يبله الدهر ». كما ذكر عنه أيضًا جوابه لأحد أولاد هرم وقد زعم أنّهم كانوا يجزلون العطاء لزهير: « ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم ».

٣ - في العهد الأمويّ:

ما إن انقضى عهد الخلفاء الراشدين حتى عادت الخصومات بين العرب إلى شبه ما كانت عليه في الجاهليّة. فإذا هناك أحزاب تتصارع بالسيف وبالكلية. ولكل حزب شعراء ينطقون باسمه ويمدحون زعماءه ويروجون لسياسته، ويهجون

خصومه ويردون على شعرائهم. وقد تحوّل الشعر بفعل هذه الأحداث والصراعات من جديد إلى أداة للتكسّب وخاصة على أيدي الخلفاء الأمويّين الذين شجعوا هذا الاتجاه في الشعر وأغدقوا بسخاء على شعراء المديح الذين توافدوا إلى الشّام من كلّ الأقطار المجاورة. فجمعوا حولهم أقطاب الشعر يبذلون لهم المال للدفاع عن سياستهم وإظهار حقّهم الإلهي في الخلافة إثر موقعة صفّين. فكان الشاعر بمثابة الصحيفة الناطقة باسم هذا الحزب أو ذاك. فتهافت الشعراء على الخلفاء طامعين بلقب شاعر الخليفة حتى إذا لم يبلغوا هذا المقام الرفيع قنعوا بما دونه منصرفين إلى الولاة والحكّام والقوّاد أو إلى من هم دونهم مرتبة، يبتغون الثروة ويتوسّلون الشفاعة لديهم للوصول إلى باب الخليفة. فهذا هو الأخطل يتوّج شاعر البلاط الأموي حين يقول:

ويومَ صفّينَ والأبصارُ خاشعةٌ أمّدهم - إذ دعوا من ربّهم - مددُ
وها هو جرير يمدح الحجاج أولاً توسّلاً لبلوغ الخلفاء عبد الملك وسليمان
ويزيد وهشام... لكنّه يقصّر عن مزاحمة الأخطل في احتلال المركز الأوّل في
بلاط عبد الملك.

وكلّ هذه الظواهر أدّت إلى نتائج سيئة في حياة الأدب العربي، فجعلت الشعر أسير المال مقيّداً بقيود المادّة لم يستطع أن يتخلّص من هذا الارتهان طوال أزمنة طويلة. ونشأ من ذلك أن الشعراء راحوا يتزاحمون في التسكّع على أبواب أولياء الأمر، يردّدون المعاني المكرّرة في المديح فيقعون في الكذب والمبالغة، كلّ ذلك على حساب الذوق الأدبي وعزّة وكرامة الشّاعر والمستمع على السواء. ولم نجد في عهد بني أميّة شاعراً لم يلتحق بهذا الركب سوى شعراء الغزل أمثال عمر بن أبي ربيعة أو جميل بن معمر وغيرهم.

٤ - قّي العهد العبّاسيّ:

مع بداية العصر العبّاسي كان شعر المديح قد تبوّأ المكان الأرحب في الشعر

العربي، وأصبحت سائر الأبواب تبدو إلى جانبه صغيرة إذا لم نقل إنها أصبحت في خدمته. فقد تفرقت الدولة الإسلامية شيعًا، وتقسّم الملوك مناطق العالم الإسلامي، فازدادت موارد الرزق عند شعراء المديح وأصبح همّ كلّ شاعر أن يسافر إلى أمير يكفيه، أو قائد يحميه. فرأينا أسماء بعض الشعراء تقترن بأسماء بعض الخلفاء والأمراء، من ذلك: المتنبي وسيف الدولة، أبو تمام والمعتصم، البحتري والمتوكل... على أن التكبّس بلغ أشده في ذلك العصر، وبلغ في افتضاح أمره وابتذال سوقه أن الجاحظ حذّر الناس من الوقوع في حبائل المتكسّبين، فقال: « ما ظنك بالشعراء والخطباء الذين إنّما تعلّموا المنطق لصناعة التكسّب! ؟ ». وكانت قصائد المديح متشابهة تبدأ بالنسيب المتكلّف ثم تذكر الطريق التي سلكها الشاعر لبلوغ الممدوح والمشقّات التي تكبّدها، والصّعاب التي اعترضته، والخيّل أو النّوق التي أقلّته حتى يصل إلى الممدوح حيث الجود والكرم والشجاعة والنجدة والبلاغة والبيان.

وبالنتيجة ظلّ المديح آخذًا بمقدّمة الشعر العربي حتى ضيّع عليه الكثير من المعاني الإنسانية وصرفه عن مواطن فنّية كان قادرًا على اكتشافها والإبداع فيها وأبعده عن عالم الوجدان وحرّم عليه سلوك طريق الملحمة أو المسرحية أو غيرها من الفنون الأدبيّة التي اشتهرت بها آداب الشعوب الأخرى.

٥ - بعد العهد العبّاسيّ:

انتقل المديح إلى الأندلس بانتقال العرب إليها وراح الشعراء يقلّدون أساليب المشاركة. وقد ساعد على ازدهار شعر المديح ما حصل من تفرّق الدويلات في عهد ملوك الطوائف وتنافس الأمراء على احتضان أرباب الشعر والكلمة. أمّا في عصر الانحطاط فقد ألحّ الشعراء على القديم وعادوا يكرّرونه دون تبديل في صورته ومعانيه حتى سقط الشعر على أيديهم كما سقط العالم السياسي للمسلمين في ظلمات داجية.

ولما كان القرن العشرون عادت جذوة المديح إلى النفوس ونشأ في مصر شعراء حول الملوك والخلفاء يتجهون حيناً إلى قصور الآستانة وحيناً آخر إلى قصور القاهرة، أو يترددون حول الوجهاء والزعماء أو يطرقون أبواباً جديدة في امتداح البلدان والأوطان.

وهوذا أمير الشعراء أحمد شوقي يهتز متباهياً حين يصبح شاعر قصر الخديوي في مصر ويقول باعتزاز:

شاعرُ العزيز وما بالقليلِ ذا اللّقبُ

ولكن الأدب الحديث يمجّ شعر المديح إجمالاً لما اقترن به خلال العصور من ألوان التكسّب والتذلل.

القسم الثاني

أنواع المديح بحسب الممدوحين

تختلف أنواع المديح باختلاف الممدوحين، ونستطيع أن نميِّز بين هذه الأنواع، أو « الألوان » كما يحلو للبعض أن يسميها، ما يلي:

- ١ - المديح الدينيّ.
- ٢ - مديح الملوك والخلفاء.
- ٣ - مديح الأمراء والوزراء والوجهاء.
- ٤ - مديح العلماء والأدباء.
- ٥ - مديح الأوطان والبلدان.

وسنخصّص لكل نوع من هذه الأنواع فصلاً مستقلاً في هذا القسم من كتابنا هذا.

الفصل الرابع

المديح الديني

١ - مدح الله عزّ جلاله :

لقد أكثرت الكتب الدينيّة من ذكر الله وبيان معجزاته في خلقه ، والاعتراف بفضله على المخلوقات جميعًا . لذلك سار الشعراء منذ القديم على تقديسه فرأوا في الطبيعة سرّ جماله وفي جمال الدنيا سرّ عظمته .

فقد قال حسّان بن ثابت :

تعاليت ربّ الناسِ عن قولٍ من دعا سواك إلها أنتَ أعلى وأمجّدُ

ثم رأينا أبا العتاهية يرى عظمة الخالق في كلّ شيء فيقول :

وإنّك معروف ولست بموصوفٍ وإنّك موجود ولست بمحدودٍ

وقد كان كثير من الشعراء يشاركون في هذا المديح الديني حتّى تطوّر هذا المديح فأصبح أقرب إلى النسيب مع شعراء المتصوّفة الذين أدخلوا الفلسفة والعقل في شعرهم : ولكنّ هذا الشعر لم يتطوّر كما تطوّر في مديح النبيّ محمّد خاتم الأنبياء (ﷺ) ، وفي الثناء على رسالته التي جاء بها والاعتزاز بفضله ، وبيان أياديه على الإسلام والمسلمين ، والإشادة بمحامده .

٢ - المديح النبوي:

كان العرب يعيشون قبل الإسلام في أطراف الأرض على نظام غريب وأسلوب عجيب عشائر وقبائل تتصادم وتتناحر. فلما ظهر النبي محمد (ﷺ) دعا الى وحدة العرب واجتماعهم تحت دين واحد وراية واحدة لينقذهم من فوضى تشل حياتهم وحروب تستنفد قواهم. فهزت تلك الدعوة الممالك المجاورة فوقفت بين مصدقة ومكذبة ووقف الشعراء منها موقف الدفاع أو الهجوم. أمّا المدافعون عن النبي ورسالته فقد امتدحوا خصال النبي وشمائله وكان مديحهم أشبه بمديح الأجراد والكرماء من رؤساء القبائل، ليس فيه ذكر للدين والتقوى والأخلاق. أمّا كعب بن زهير فقد مدح النبي بقصيدة سارت على الزمان وقلدها الشعراء على مرّ العصور، يعتذر فيها من النبي ويطلب عفوه لما بدر منه حيث قال فيها:

إنّ الرسول لنورٍ يُستضاء به مهتدٌ من سيف الله مسلولٌ

وبلغ بذلك منتهى المديح العربي القديم، إذ جمع الكرم والعفو والتسامح والشجاعة والوقار والسيادة والقداسة في شخص النبي. ثم انبرى حسّان بن ثابت شاعر الرسول يدافع عن النبي وعن دعوته الجديدة، فإذا رسالته هدى للناس وإذا النبي هو الكمال المجسم والخلق المصفى:

خلقت مبراً من كلّ عيبٍ كأنّك قد خلقت كما تشاء

وظلّ الشعراء في كلّ عصر يفعلون كما فعل حسّان بن ثابت، حتّى جاء القرن السابع للهجرة، فوضع محمد بن سعيد البوصيري قصيدته الهمزية الشهيرة التي زادت على أربعمائة بيت بسط فيها حياة النبي ومزاياه ومعجزاته، ورسم مولده في ليلة غراء وضعته فيها أمّه آمنة بنت وهب. ثم ينتقل إلى وصفه كرجل في قصيدة أخرى يقول فيها:

كالزهر في ترفٍ والبدر في شرفٍ والبحر في كرمٍ والدهر في همٍ

وهذه القصيدة الميمية سميت « البردة » فحفظتها الأجيال الإسلامية ، وتولتها المطابع ، وشرحها الشارحون ، وعارضها الشعراء على مدى العصور .

ولم يخلُ القرن الماضي والقرن الحالي من شعراء امتدحوا النبيّ نذكر منهم محمود سامي البارودي وأحمد شوقي في « الهزمية النبوية » ، وفي القصيدة الميمية « نهج البردة » ، والبائية التي مطلعها :

سلوا قلبي غداة سلا وتابا
حيث يقول فيها :

وكان بيانه للهدى سُبُلًا وكانت خيلُهُ للحقّ غابا
وعلمنا بناءً المجسدِ حتّى أخذنا إمرة الأرض اغتصابا
وما نيلُ المطالبِ بالتمنّي ولكن تُؤخَذُ الدنيا غلابا

ولن نوفي حقّ هؤلاء الشعراء في مديح النبيّ ، لأنّ ذلك يطول ، بل نؤكد أنّ الشعراء اتجهوا إلى نبّئهم كلّما ضاقت بهم الدنيا وأحاطت بهم الأحداث ونالتهم المصائب والكوارث .

٣ - مديح آل البيت :

إذا كان الشعراء قد امتدحوا الرسول ونبوّته ، فقد امتدحوا آله وأهل بيته ، يدفعهم الألم والحرمان في كثير من الأحيان ، فأظهروا عاطفة الدين ممزوجة بعاطفة السياسة . وقد الحّوا على تصوير الفواجع التي ألّمت بأهل البيت كمقتل الحسن والحسين وإحياء تلك الذكرى في المآتم . فجرى شعرهم في الدواوين كما جرت الدماء في تلك الفواجع وما زال حتّى اليوم كأننا في الأيام الأولى من الإسلام . فإذا بالأحفاد يحملون فكرة الانتقام من أبناء لا يملكون إلّا الأسف لما وقع بين أجدادهم في القديم .

فها هو الكميت في هاشمياته يمدح أهل البيت ويتناول الأمويين بالهجاء ويرى أنهم لا يصلحون لخلافة المسلمين.

بأيّ كتابٍ أمْ بأيّةِ مُنّةٍ ترى حبّهم عاراً عليّ وتحسبُ
فما لي إلاّ آلُ أحمدَ شيعّةً وما لي إلاّ مشعّبُ الحقّ مشعّبُ

والفرزدق على تقرّبه من الأمويين مدح زين العابدين بن الحسين بن علي في
حضرة الخليفة الأمويّ هشام بن عبد الملك، فجعل حبّهم من الإيمان وبغضهم من
الكفر، فهم أئمة أهل التقى وخير أهل الأرض:

من معشرٍ حبّهم دينٌ وبغضهمُ كفرٌ وقربهمُ منجىٌ ومعتصمُ
إنّ عدّةَ أهلُ التقى كانوا أئمتهم أو قيل من خيرِ أهلِ الأرضِ قيل همُ

ولما كان القرن الرابع الهجري، استولى الحمدانيّون على الجزيرة وحلب،
وجعلوا من هذه الربوع منابر لمدح آل البيت والمطالبة بالثأر لهم، وحشدوا شعراءهم
لمدح الشيعة والتفجّع على ما حلّ بهم من أمثال السريّ الرقاء والأواء الدمشقي
والصنوبري وأبي فراس الحمداني الذي قال:

شافعي أحمدُ النبيّ ومسولا يَ عليّ والبنت والسبطان^(١)
والإمام المهديّ في يوم لا ينـد فَعُ إلا غفرانُ ذي الغفرانِ

وقد تحوّل شعر هؤلاء الشعراء إلى شعر سياسي في لغة عصرنا يهاجم العباسيين
وينتصر لآل البيت وخاصّة عند الصنوبري الذي يُعتبر من أطول شعراء بني حمدان
نفساً في مدح آل البيت.

(١) البنت: فاطمة بنت الرسول (ﷺ)، والسبطان: الإمامان الحسن والحسين رضي الله عنهما.

أما الشريف الرضيّ فإنه على طريقة الصنوبري وأبي فراس يتوجّع للفواجع التي
حلّت بالشيعة ويهدّد بالثأر والانتقام ويندّد بالقاتلين في قصائد باكية، حزينة،
تشبه الرثاء والتفجّع، أعادت إلى الأذهان سيرة الجاهليّة في العصبية والقبلية.

وقد اقتفى مهيار الديلمي آثار من سبقه من زملائه الشعراء وغلب على شعره
البكاء والتفجّع، وجعل القضية دينيّة صرفة. وقد تجمع من هذه القصائد في آل
البيت كتب عديدة عمل القدماء على جمعها وتبويبها فانتشرت في كثير من أصقاع
العرب.

حسان بن ثابت في مدح النبي (ﷺ)

هو حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري (. . . - ٥٤ هـ / ٦٧٤ م) ، الصحابي ، شاعر النبي (ﷺ) . قال أبو عبيدة : فضل حسان الشعراء بثلاثة ، كان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر النبي (ﷺ) في النبوة ، وشاعر اليمانيين في الإسلام .

ومن مدائحه النبوية نثبت القصيدتين التاليتين :

(من ثاني الطويل مطلق مجرد موصول والقافية متدارك)

أَغَرَّ عَلَيْهِ لِلنَّبُوءَةِ خَاتَمٌ مِنْ اللَّهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ وَيُشْهَدُ^(١)
وَضَمَّ إِلَاهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَذِّنُ أَشْهَدُ^(٢)

(١) أغرّ: كريم الأفعال وضحها على المثل، والأغر من الغرة بياض الوجه، وقوله: « عليه للنبوة خاتم من الله » يجوز أن يكون المراد: عليه من إشراقه وتألؤه ومن جميع خصاله طابع النبوة يلوح ويشاهد، وأن يكون المراد خاتم النبوة على حقيقته، وخاتم النبوة، بفتح التاء وكسرها، قيل إنه شامة خضراء أو سوداء محتفرة في اللحم وقيل كغدة عند غضروف كتفه اليسرى. قيل: ولد عليه السلام به، قيل: بعد أن ولد، والذي يظهر أنه من اختصاصه ﷺ لأنه إشارة إلى أنه خاتم النبيين.

(٢) قوله: « إذا قال في الخمس المؤذن أشهد » بيان لقوله: « وضم الإله اسم النبي لاسمه »، وذلك أن المؤذن يقول في كل صلاة من الصلوات الخمس: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ
نَبِيُّ أَتَانَا بَعْدَ يَأْسٍ وَقْتَرَةٍ
فَأَمْسَى سِرَاجًا مُسْتَنِيرًا وَهَادِيًا
وَأَنْذَرَنَا نَارًا وَبَشَّرَ جَنَّةً
وَأَنْتَ إِلَهَ الْخَلْقِ رَبِّي وَخَالِقِي
تَعَالَيْتَ رَبَّ النَّاسِ عَنْ قَوْلٍ مَنْ دَعَا
لَكَ الْخَلْقُ وَالنَّعْمَاءُ وَالْأَمْرُ كُلُّهُ
فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدٌ^(١)
مِنَ الرُّسُلِ وَالْأَوْتَانُ فِي الْأَرْضِ تُعْبَدُ^(٢)
يَلُوحُ كَمَا لَاحَ الصَّبَقُ الْمُهَنَّدُ^(٣)
وَعَلَّمَنَا الْإِسْلَامَ فَاللَّهُ نَحْمَدُ^(٤)
بِذَلِكَ مَا عَمَّرْتُ فِي النَّاسِ أَشْهَدُ^(٥)
سِوَاكَ إِلَهًا أَنْتَ أَعْلَى وَأَمَجَدُ
فَإِيَّاكَ نَسْتَهْدِي وَإِيَّاكَ نَعْبُدُ^(٦)

★ ★ ★

وَاللَّهُ رَبِّي لَا نُفَارِقُ مَا جِئْنَا
عَفَّ الْخَلِيقَةِ مَا جِئْنَا الْأَمْجَادِ^(١)

- (١) قوله: «فذو العرش محمود» بيان لقوله: «وشق له من اسمه»، وهذا البيت ليس من قول حسان، وإنما هو لأبي طالب ضمَّنه حسان شعره، وأصل البيت: شقَّ له دون واو على أن فيه خرمًا، أي حذف حرف من أوله، وهو الواو.
- (٢) الفترة ما بين كل رسولين من رسل الله عزَّ وجل من الزمان الذي انقطعت فيه الرسالة وقوله: «والأوتان» الواو واو الحال، والأوتان جمع «وثن».
- (٣) الصبقل المهنَّد: السيف المصقول.
- (٤) الإنذار: الاعلام والتحذير مما يخاف منه، والمنذر المخوِّف المحذِّر. وقوله: «وبشر جنة» تقول: بشره وأبشره، فبشر به فرح، والبشارة المطلقة لا تكون إلَّا بالخير.
- (٥) إله الخلق: يا إله الخلق، وقوله: بذلك متعلق بقول: «أشهد».
- (٦) فالخلق في كلام العرب ابتداء الشيء على مثال لم يسبق إليه، وكلَّ شيء خلقه الله فهو مبتدئه على غير مثال سبق إليه، ونعمة الله ونعمائه منه وما أعطاه الله العبد مما لا يمكن غيره أن يعطيه إياه من نعمه الظاهرة والباطنة.
- (٧) عَفَّ الخليفة: فالفعة الكفَّ عمَّا لا يحل وعن كل ما لا يجمل وسيدنا رسول الله عفيف بخلقه لا يتعمل لذلك.

مُتَكَرِّمًا يَدْعُو إِلَى رَبِّ الْعُلَى بَذَلَ النَّصِيحَةَ رَافِعَ الْأَعْمَادِ^(١)
مِثْلَ الْهَلَالِ مُبَارَكًا ذَا رَحْمَةٍ سَمَحَ الْخَلِيقَةَ طَيِّبَ الْأَعْوَادِ^(٢)
إِنْ تَتْرُكُوهُ فَإِنَّ رَبِّي قَادِرٌ أَمْسَى يَعُودُ بِفَضْلِهِ الْعَوَادِ^(٣)
وَاللَّهِ رَبِّي لَا نَفَارِقُ أَمْرَهُ مَا كَانَ عَيْشٌ يُرْتَجَى لِمَعَادِ
لَا نَبْتَغِي رَبًّا سِوَاهُ نَاصِرًا حَتَّى نُوَافِيَ ضَخْوَةَ الْمِيعَادِ

★ ★ ★

(١) بذل النصيحة: يجود بها عن طيبة خاطر وهو الناصح الأمين، ورافع الأعماد: يريد رافع عماد غيره إذ ينتصح بنصيحته ويتبع قوله، وهل ارتفع عماد أحد ارتفاع عماد أصحاب رسول الله، وفلان رفيع العماد يراد عماد بيت شرفه، والعرب تضع البيت موضع الشرف في النسب والحسب.

(٢) طيب الأعواد: كريم النسب.

(٣) يعود بفضل العواد: عن العائدة، وهي ما عاد به عليك المفضل في صلة أو فضل.

كعب بن زهير في مدح النبي (ﷺ)

هو كعب بن زهير بن أبي سلمى المازنيّ (٠٠٠ - ٢٦ هـ / ٦٤٥ م) شاعر عالي الطبقة من أهالي نجد . كان ميمّن اشتهر في الجاهليّة . ولما ظهر الإسلام ، هجا النبي (ﷺ) ، وأقام يشبّب بنساء المسلمين ، فهدر النبيّ دمه ، فجاءه كعب مستأمنًا ، وقد أسلم ، وأنشده لاميتّه المشهورة ، فعفا عنه النبي (ﷺ) ، وخلع عليه برده . وقد كثر مُحَمِّسُو هذه اللامية ، ومشطّروها ، ومعارضوها ، وشرّاحها ، وترجمت إلى الإيطالية ، وفيما يلي مقتطفات منها :

بانت سعاد

بَانَتْ سَعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَبُولٌ مُتِيّمٌ إِثْرَهَا ، لَمْ يُفَدَ ، مَكْبُولٌ^(١)
وَمَا سَعَادُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا إِلَّا أَغْنَى غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولٌ^(٢) ...

(١) بانت : فارقت ، ابتعدت . المتبول : الذي أسقمه الحب واضعفه . المتيم : الذي استولى عليه الهوى وذلله . المكبول : المقيد .

(٢) البين : الفراق . الأغن : شفة للظبي ، وهو الذي يخرج صوته من خياشيمه . غضيض الطرف : فائر الأجفان مسترخيها .

تَسْعَى الْوُشَاةُ جَنَابَيْهَا، وَقَوْلُهُمْ
فَقُلْتُ: « خَلُّوا سَبِيلِي لَا أَبَا لَكُمْ
كُلُّ ابْنِ أُنْثَى، وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ
هَآ أَنْتَ، يَا ابْنَ سُلْمَى، لَمَقْتُولٌ^(١)
فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولٌ^(٢)
يَوْمًا عَلَى آلَةِ حَدَبَاءَ مَحْمُولٌ^(٣)

★ ★ ★

نُبِّئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي
مَهْلًا هَذَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةً
لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ، وَلَمْ
مَا زِلْتُ أَفْتَطِيعُ الْبَيْدَاءَ مُدْرِعًا
حَتَّى وَضَعْتُ يَمِينِي مَا أَنَازِعُهَا
إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٍ يُسْتَضَاءُ بِهِ
لَذَاكَ أَهْيَبُ عِنْدِي، إِذْ أَكَلَّمُهُ
وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولٌ^(٤)
الْقُرْآنَ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيلٌ^(٥)
أَذِيبُ، وَلَوْ كَثُرَتْ فِي الْأَقَاوِيلِ...
جِنَحَ الظَّلَامِ، وَثَوْبُ اللَّيْلِ مَسْبُولٌ^(٦)
فِي كَفِّ ذِي نَقِمَاتٍ قَوْلُهُ الْقِيلُ^(٧)
مُهَنَّدٌ مِنْ سَيْوفِ اللَّهِ مَسْلُوكٌ^(٨)
وَقِيلَ: إِنَّكَ مَنْسُوبٌ وَمَسْئُولٌ^(٩)

-
- (١) الوشاة: ج الواشي وهم النمامون، وقد سعوا ليشوا به إلى النبي. جنابيهما: أي سائرين من على جانبي ناقة كعب. لمقتول: أي إن النبي سيقتلك.
- (٢) خلوا سبيلي: دعوني وحدي. لا أبا لكم: نوع من الدعاء.
- (٣) آلة حدباء: نعش الميت.
- (٤) أوعدي: هددني.
- (٥) نافلة القرآن: عطية القرآن. التفصيل: التبيين.
- (٦) جنح الظلام: الطائفة من الليل؛ مدرعًا جنح الظلام: أي لابسًا الظلام كالدرع. ثوب الليل مسبول: أي ظلام الليل شامل الموجودات.
- (٧) ما أنازعها: أي لا أجذبها. القيل: أي القول الحق.
- (٨) أي انه سيف هدى. لما سمع محمد هذا البيت خلع على الشاعر برده.
- (٩) لذاك: أي النبي. أهيب: أكثر هيبة. منسوب: ستسأل عن نسبك أمام النبي. مسئول: أي أنت مسئول عن التهم الموجهة إليك.

مِنْ خَادِرٍ مِنْ لُيُوثِ الْأَرْضِ ، مَسْكِنُهُ مِنْ بَطْنِ عَثَرَ ، غِيلٌ دُونَهُ غِيلٌ^(١)
يَغْدُو فَيَلْحَمُ ضِرْعَامَيْنِ ، عَيْشُهُمَا لَحْمٌ مِنَ الْقَوْمِ مَعْفُورٌ خَرَادِيلٌ^(٢)

-
- (١) الخادر: الأسد في خدره أي في عرينه. ليوث: ج ليث: أسد. عثر: مكان مشهور بالأسود. غيل: خبر تان لـ «مسكنه» وهو بمعنى: الاجمة. وغيل دونه غيل بمعنى: أجمة أمامها أجمة، أي مسكن ذلك الليث هو وسط غابات مترامية الأطراف.
- (٢) يغدو: يذهب غدوة، أي صباحًا. يلحم: يطعم اللحم. ضرغام: أسد. - يقول: يذهب صباحًا إلى الصيد ليطعم شبليه من لحم البشر. معفور: ممرغ بالتراب. خراديل: ج خردلة: قطعة لحم صغيرة.

أحمد شوقي في المديح النبويّ

هو أمير الشعراء أحمد شوقي بن علي بن أحمد (١٨٦٨ م / ١٢٨٥ هـ - ١٩٣٢ / ١٣٥١ هـ). مولده ووفاته في القاهرة. عاش حياته كلها للشعر يستوحيه من المشاهدات والحوادث. وعالج أكثر فنونه، فجرى شعره على كلّ لسان. من آثاره «الشوقيات»، وهو ديوان شعره، و«دول العرب»، و«مصرع كليوباترة»، و«عنتره» و«مجنون ليلى»، و«قمبيز»، وغيرها.

وله ثلاث قصائد مشهورة في المديح النبويّ.

وفيما يلي قصيدته الهمزيّة في مدح النبيّ (ﷺ)، ثم بائيتيه المشهورة.

الهمزيّة النبويّة

وُلِدَ الْهُدَى، فَالْكَائِنَاتُ ضِيَاءُ وَفَمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَتَنَاءُ
الرُّوحُ وَالْمَلَأُ الْمَلَائِكُ حَوْلَهُ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا بِهِ بُشْرَاءُ^(١)
وَالْعَرْشُ يَزْهُو، وَالْحَظِيرَةُ تَزْدَهِي وَالْمُنْتَهَى، وَالسَّدْرَةُ الْعَصْمَاءُ^(٢)

(١) الروح الأمين: لقب جبريل. والملأ: الاشراف. والملائك: الملائكة. وبشراء: جمع بشير.

(٢) يزهو: يشرق. وسدرة المنتهى: يقال انها شجرة نبق على يمين العرش.

وَحَدِيقَةُ الْفُرْقَانِ ضَاحِكَةُ الرَّبِّ
وَالْوَحْيُ يَقْطُرُ سَلْسَلًا مِنْ سَلْسَلِ
نُظِمَتِ أَسَامِي الرُّسُلِ فَهِيَ صَحِيفَةٌ
اسْمُ الْجَلَالَةِ فِي بَدِيعِ حُرُوفِهِ
بِالترجمانِ ، شَذِيَّةٌ ، غَنَاءُ (١)
وَاللَّوْحُ وَالْقَلَمُ الْبَدِيعُ رُؤَا (٢)
فِي اللَّوْحِ ، وَاسْمُ مُحَمَّدٍ طُغْرَاءُ (٣)
أَلِفٌ هُنَالِكَ ، وَاسْمُ (طَه) الْبَاءُ

★ ★ ★

يَا خَيْرَ مَنْ جَاءَ الْوُجُودَ ، تَحِيَّةً
بَيَّتَ النَّبِيِّنَ الَّذِي لَا يَلْتَقِي
خَيْرُ الْأَبْوَةِ حَازَهُمْ لَكَ (آدَمُ)
هُمْ أَذْرَكُوا عِزَّ النَّبُوَّةِ وَأَنْتَهَتْ
خُلِقَتْ لِبَيْتِكَ ، وَهُوَ مَخْلُوقٌ لَهَا
بِكَ بَشَّرَ اللَّهُ السَّمَاءَ فَزَيَّنَتْ
وَبَدَأَ مُحْيَاكَ الَّذِي قَسَمَاتُهُ
وَعَلَيْهِ مِنْ نُورِ النَّبُوَّةِ رَوْنَقٌ
مِنْ مُرْسَلِينَ إِلَى الْهُدَى بِكَ جَاءُوا
إِلَّا الْحَنَائِفُ فِيهِ وَالْحَنَفَاءُ (٤)
دُونَ الْأَنَامِ ، وَأَخْرَزَتْ حَوَاءُ
فِيهَا إِلَيْكَ الْعِزَّةَ الْقَعَسَاءُ (٥)
إِنَّ الْعِظَائِمَ كَفُّوْهَا الْعُظْمَاءُ
وَتَضَوَّعَتْ مِسْكَ بِكَ الْغَبْرَاءُ (٦)
حَقٌّ ، وَغُرَّتُهُ هُدًى وَحْيَاءُ (٧)
وَمِنْ الْخَلِيلِ وَهْدِيهِ سَيِّمَاءُ (٨)

(١) الربا: جمع ربوة. وهي ما ارتفع من الأرض.

(٢) الرواء ماء الوجه وحسن المنظر.

(٣) الطغراء: ما يسميه العامة « طرة » وأصلها طغرى بالقصر، وهي التي تكتب بالقلم الغليظ في صدر الأوامر.

(٤) الحنيف: الصحيح الميل إلى الإسلام وكل من كان على دين إبراهيم عليه السلام، والجمع حنفاء، والمؤنث حنيفة، وجمعها حنائف.

(٥) القعساء: المنبعة الثابتة.

(٦) تضووع المسك: انتشرت رائحته. والغبراء: الأرض.

(٧) القسمة ما بين الوجنتين والأنف، وجمعها قسما.

(٨) الخليل: إبراهيم عليه السلام.

أَثْنَى الْمَسِيحُ عَلَيْهِ خَلْفَ سَمَائِهِ
يَوْمَ يَتِيهِ عَلَى الزَّمَانِ صَبَاحُهُ
الْحَقُّ عَالِي الرُّكْنِ فِيهِ، مُظْفَرٌ
ذُعِرَتْ عُرُوشُ الظَّالِمِينَ، فَزُلْزِلَتْ
وَالنَّارُ خَاوِيَةً الْجَوَائِبِ حَوْلَهُمْ
وَالْآيُ تَتَرَى، وَالْخَوَارِقُ جَمَّةٌ
نِعَمَ الْيَتِيمُ بَدَتْ مَخَايِلُ فَضْلِهِ
فِي الْمَهْدِ يُسْتَسْقَى الْحَيَا بِرَجَائِهِ
بِسَوَى الْأَمَانَةِ فِي الصَّبَا وَالصَّدْقِ لَمْ
يَا مَنْ لَهُ الْأَخْلَاقُ مَا تَهْوَى الْعَلَا
لَوْ لَمْ تُقَمِّ دِينًا لَقَامَتْ وَحْدَهَا
زَانَتْكَ فِي الْخَلْقِ الْعَظِيمِ شَمَائِلُ
أَمَّا الْجَمَالُ فَأَنْتَ شَمْسُ سَمَائِهِ
وَالْحُسْنُ مِنْ كَرَمِ الْوُجُوهِ، وَخَيْرُهُ

وَتَهَلَّلَتْ وَاهْتَزَّتِ الْعِذْرَاءُ^(١)
وَمَسَاوُهُ بِمَحْمَدٍ وَضَاءُ
فِي الْمُلْكِ، لَا يَعْلُو عَلَيْهِ لِسَاءُ
وَعَلَتْ عَلَى تِجَانِهِمْ أَصْدَاءُ
خَمَدَتْ ذَوَائِبُهَا، وَغَاضَ الْمَاءُ^(٢)
(جَبْرِيلُ) رَوَّاحٌ بِهَا غَدَاءُ^(٣)
وَالْيَتِيمُ رِزْقٌ بَعْضُهُ وَذَكَاءُ^(٤)
وَبِقَصْدِهِ تُسْتَدْفَعُ الْبِأْسَاءُ^(٥)
يَعْرِفُهُ أَهْلُ الصَّدْقِ وَالْأَمْنَاءُ
مِنْهَا وَمَا يَتَعَشَّقُ الْكُبْرَاءُ
دِينًا تُضِيءُ بِنُورِهِ الْآنَاءُ
يُغْرَى بِهِنَّ وَيُولَعُ الْكُرْمَاءُ
وَمَلَا حَتَّى (الصَّدِّيقِ) مِنْكَ أَيَّاءُ^(٦)
مَا أُوتِيَ الْقُوَادُ وَالزُّعْمَاءُ

(١) العذراء السيدة مريم.

(٢) خمدت النار: سكن لهيبها. والذوائب جمع ذؤابة، وهي أعلى كل شيء والمراد بالذوائب هنا السنة اللهب.

(٣) تترى: تتوالى. ورواح غداء أي يروح ويغدو.

(٤) المخيلة: المظنة.

(٥) استسقى الرجل: طلب السقي. والحيا: المطر.

(٦) أياء الشمس واياتها: نورها وحسنها.

فإذا سَخَوْتَ بَلَغْتَ بِالْجُودِ الْمَدَى
وإذا عَفَوْتَ فَقَادِرًا، وَمُقَدَّرًا
وإذا رَحِمْتَ فَأَنْتَ أُمٌّ، أَوْ أَبٌ
وإذا غَضِبْتَ فَإِنَّمَا هِيَ غَضَبَةٌ
وإذا رَضِيتَ فَذَاكَ فِي مَرْضَاتِهِ
وإذا خَطَبْتَ فَلِلْمَنَابِرِ هِزَّةٌ
وإذا قَضَيْتَ فَلَا أَرْتِيَابَ، كَأَنَّمَا
وإذا حَمَيْتَ الْمَاءَ لَمْ يُورَدْ، وَلَوْ
وإذا أَجَرْتَ فَأَنْتَ بَيْتُ اللَّهِ، لَمْ
وإذا مَلَكَتِ النَّفْسَ قُمْتَ بِبِرِّهَا
وإذا بَنَيْتَ فَخَيْرُ زَوْجٍ عِشْرَةٌ
وإذا صَحِبْتَ رَأَى الْوَفَاءَ مُجَسَّمًا
وإذا أَخَذْتَ الْعَهْدَ، أَوْ أُعْطِيَتْهُ
وإذا مَشَيْتَ إِلَى الْعِدَا فغَضَنْفَرٌ
وَتَمُدُّ حِلْمَكَ لِلسَّفِيهِ مُدَارِيًا

وَفَعَلْتَ مَا لَا تَفْعَلُ الْأَنْوَاءُ^(١)
لَا يَسْتَهِينُ بِعَفْوِكَ الْجُهْلَاءُ
هَذَانِ فِي الدُّنْيَا هُمَا الرَّحَمَاءُ
فِي الْحَقِّ، لَا ضِغْنٌ وَلَا بَغْضَاءُ^(٢)
وَرَضَى الْكَثِيرُ تَحْلُمٌ وَرِيَاءُ^(٣)
تَعْرُو النَّدَى، وَلِلْقُلُوبِ بُكَاءُ^(٤)
جَاءَ الْخُصُومَ مِنَ السَّمَاءِ قَضَاءُ
أَنَّ الْقِيَاصِيرَ وَالْمُلُوكَ ظِمَاءُ
يَدْخُلُ عَلَيْهِ الْمُسْتَجِيرَ عِدَاءُ
وَلَوْ أَنَّ مَا مَلَكَتْ يَدَاكَ الشَّاءُ
وإذا أَبْتَنَيْتَ فَدُونَكَ الْآبَاءُ^(٥)
فِي بُرْدِكَ الْأَصْحَابُ وَالْخُلَطَاءُ
فَجَمِيعُ عَهْدِكَ ذِمَّةٌ وَوَفَاءُ
وإذا جَرَيْتَ فَإِنَّكَ النُّكْبَاءُ^(٦)
حَتَّى يَضِيقَ بِعِرْضِكَ السَّفَهَاءُ

-
- (١) النوء : المطر .
(٢) الضغن : الحقد .
(٣) التحلم ، تكلف الحلم .
(٤) الندى . النادى .
(٥) بنى بأهله : زف إليهم . وانتنى : صار له بنون .
(٦) غضنفر : أسد . والنكباء : ريح بين ريحين .

في كلِّ نفسٍ من سَطَاكَ مَهَابَةٌ وَلِكُلِّ نَفْسٍ فِي نَدَاكَ رَجَاءٌ^(١)
والرأي لم يُنْضَ المَهْنَدُ دُونَهُ كَالسَّيْفِ لَمْ تَضْرِبْ بِهِ الْآرَاءُ^(٢)

★ ★ ★

يَأْيَهَا الْأَمِّيُّ، حَسْبُكَ رِثْبَةٌ فِي الْعِلْمِ أَنْ دَانَتْ بِكَ الْعُلَمَاءُ^(٣)
الذِّكْرُ آيَةٌ رَبِّكَ الْكُبْرَى الَّتِي فِيهَا لِبَاغِي الْمُعْجِزَاتِ غِنَاءُ^(٤)
صَدْرُ الْبَيَانِ لَهُ إِذَا أَلْتَقَتِ اللَّغَى وَتَقَدَّمَ الْبُلْغَاءُ وَالْفُصَحَاءُ^(٥)
نُسِخَتْ بِهِ التَّوْرَةُ وَهِيَ وَضِيئَةٌ وَتَخَلَّفَ الْإِنْجِيلُ وَهُوَ ذُكَاءُ^(٦)
لَمَّا تَمَشَّى فِي (الْحِجَازِ) حَكِيمُهُ فَضَّتْ (عُكَاطُ) بِهِ، وَقَامَ حِرَاءُ^(٧)
أَزْرَى بِمَنْطِقِ أَهْلِهِ وَبَيَانِهِمْ وَحْيٍ يُقْصِّرُ دُونَهُ الْبُلْغَاءُ^(٨)
حَسَدُوا، فَقَالُوا: شَاعِرٌ، أَوْ سَاحِرٌ وَمِنَ الْحَسُودِ يَكُونُ الْأَسْتَهْزَاءُ
قَدْ نَالَ (بِالْهَادِي) الْكَرِيمِ وَ(بِالْهُدَى) مَا لَمْ تَنْلُ مِنْ سُودِدِ سِينَاءُ
أَمْسَى كَأَنَّكَ مِنْ جَلَالِكَ أُمَّةٌ وَكَأَنَّهُ مِنْ أَنْسِهِ بَيْدَاءُ
يُوحَى إِلَيْكَ الْفَوْزُ فِي ظُلُمَاتِهِ مُتَّابِعًا، تُجْلَى بِهِ الظَّلْمَاءُ
دِينَ يُشِيدُ آيَةً فِي آيَةٍ

(١) سطا: جمع سطوة.

(٢) نضا السيف من غمده. سله والمهند: السيف المطبوع من حديد.

(٣) دان به: اتخذه ديناً.

(٤) الباغي: الطالب. والغناء: ما يغني.

(٥) اللعى: جمع لغة.

(٦) ذكاء: من أسماء الشمس.

(٧) حراء: الغار الذي كان يتعبد فيه النبي ﷺ ونزل عليه فيه الوحي.

(٨) أررى به: عابه.

الحقُّ فيه هو الأساسُ، وكيف لا
أَمَّا حَدِيثُكَ فِي الْعُقُولِ فَمَشْرَعٌ
هو صِبْغَةُ الْفُرْقَانِ، نَفْحَةُ قُدْسِهِ
جَرَتْ الْفَصَاحَةُ مِنْ يَنَابِيعِ النَّهْيِ
فِي بَحْرِهِ لِلْسَّابِحِينَ بِهِ عَلَى
أَتَتْ الدُّهُورُ عَلَى سُلَافَتِهِ، وَلَمْ
يَكْ يَا ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ قَامَتْ سَمْحَةُ
بُنِيَتْ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَهِيَ حَقِيقَةُ
وَجَدَ الزُّعَافَ مِنَ السُّمُومِ لِأَجْلِهَا
وَمَشَى عَلَى وَجْهِ الزَّمَانِ بِنُورِهَا
إِيزِيسُ ذَاتُ الْمُلْكِ حِينَ تَوَحَّدَتْ
لَمَّا دَعَوْتَ النَّاسَ لَبَّى عَاقِلٌ
أَبَا الْخُرُوجِ إِلَيْكَ مِنْ أَوْهَامِهِمْ
وَمِنَ الْعُقُولِ جَدَاوِلٌ وَجَلَامِيدٌ

واللهُ جَلَّ جَلَالُهُ الْبِنَاءُ؟
وَالْعِلْمُ وَالْحِكْمُ الْغَوَالِي الْمَاءُ^(١)
وَالسَّيْنُ مِنْ سُورَاتِهِ وَالرَّاءُ^(٢)
مِنْ دَوْحِهِ، وَتَفَجَّرَ الْإِنْشَاءُ^(٣)
أَدَبِ الْحَيَاةِ وَعِلْمُهَا إِرْسَاءُ
تَفَنَ السُّلَافُ، وَلَا سَلَا النُّدْمَاءُ^(٤)
بِالْحَقِّ مِنْ مِلَلِ الْهُدَى غَرَاءُ^(٥)
نَادَى بِهَا سُقْرَاطُ وَالْقُدَمَاءُ
كَالشَّهْدِ، ثُمَّ تَتَابَعَ الشُّهَدَاءُ
كُهَّانُ وَادِي النَّيْلِ وَالْعُرَفَاءُ^(٦)
أَخَذَتْ قِوَامَ أُمُورِهَا الْأَشْيَاءُ^(٧)
وَأَصَمَّ مِنْكَ الْجَاهِلِينَ نِدَاءُ
وَالنَّاسُ فِي أَوْهَامِهِمْ سُجَنَاءُ
وَمِنَ النَّفُوسِ حَرَائِرٌ وَإِمَاءُ^(٨)

-
- (١) «مشرع: مورد.
(٢) الصبغة: النوع.
(٣) الدوح: الشجر العظيم المتسع.
(٤) السلاف والسلافة: أفضل الخمر.
(٥) السمحة: الملة التي ليس فيها ضيق.
(٦) العراف: المنجم، والجمع عرفاء.
(٧) ايزيس: من آلهة المصريين القدماء.
(٨) الجدول: النهر الصغير، والجلمود: الصخر.

دَاءُ الْجَمَاعَةِ مِنْ أَرَسْطَالِيسَ لَمْ
 فَرَسَمْتَ بَعْدَكَ لِلْعِبَادِ حُكُومَةً
 اللَّهُ فَوْقَ الْخَلْقِ فِيهَا وَحْدَهُ
 وَالدِّينُ يُسَرُّ، وَالْخِلَافَةُ بِيَعَةِ
 الْإِشْتِرَاكِوْنَ أَنْتَ إِمَامُهُمْ
 دَاوَيْتَ مُتَّيِّدًا، وَدَاوَا ظَفْرَةَ
 الْحَرْبِ فِي حَقِّ لَدِيكَ شَرِيعَةً
 وَالْبِرُّ عِنْدَكَ ذِمَّةٌ، وَفَرِيضَةٌ
 جَاءَتْ فَوَحَّدَتْ الزَّكَاةَ سَبِيلَهُ
 أَنْصَفْتَ أَهْلَ الْفَقْرِ مِنْ أَهْلِ الْغِنَى
 فَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا تَخَيَّرَ مِلَّةً
 يُوصَفُ لَهُ حَتَّى أَتَيْتَ دَوَاءً
 لَا سُوقَةَ فِيهَا وَلَا أَمْرَاءَ
 وَالنَّاسُ تَحْتَ لَوَائِهَا أَكْفَاءُ
 وَالْأَمْرُ شُورَى، وَالْحُقُوقُ قَضَاءُ
 لَوْلَا دَعَاوَى الْقَوْمِ وَالْغُلُوءُ^(١)
 وَأَخَفُّ مِنْ بَعْضِ الدَّوَاءِ الدَّاءُ^(٢)
 وَمَنْ السُّمُومِ النَّاَقَعَاتِ دَوَاءُ^(٣)
 لَا مِنَّةٌ مَمْنُونَةٌ وَجَبَاءُ^(٤)
 حَتَّى التَّقَى الْكُرْمَاءُ وَالْبُخْلَاءُ
 فَالْكُلُّ فِي حَقِّ الْحَيَاةِ سَوَاءُ
 مَا اخْتَارَ إِلَّا دِينَكَ الْفُقَرَاءُ

★ ★ ★

يَا أَيُّهَا الْمُسْرَى بِهِ شَرَفًا إِلَى
 يَتَسَاءَلُونَ - وَأَنْتَ أَطْهَرُ هَيْكَلٍ -
 بِهِمَا سَمَوْتَ مُطَهَّرَيْنِ، كِلَاهُمَا
 مَا لَا تَنَالُ الشَّمْسُ وَالْجُوزَاءُ^(٥)
 : بِالرُّوحِ أَمَ بِالْهَيْكَلِ الْإِسْرَاءُ^(٦)
 نُورٌ، وَرِيحَانِيَّةٌ، وَبِهَاءُ

(١) الغلواء : الغلو.

(٢) متئداً : متالياً . وظفر : وتب .

(٣) الناقعات : القاتلات .

(٤) البر : الاحسان . وذمة : عهد . والمنة : العطية ، والممنونة : المتبوعة بالمن .

(٥) الاسراء : السير ليلاً .

(٦) الهيكل الجسم والصورة والشخص .

فَضْلٌ عَلَيْكَ لَدِي الْجَلَالِ وَمِنَّةٌ
تَغْشَى الْغُيُوبَ مِنَ الْعَوَالِمِ ، كَلَّمَا
فِي كُلِّ مَنَاطِقَةٍ حَوَاشِي نَوْرَهَا
أَنْتَ الْجَمَالُ بِهَا ، وَأَنْتَ الْمَجْتَلِي
اللَّهُ هَيَّأَ مِنْ حَظِيرَةِ قُدْسِهِ
الْعَرْشُ تَحْتِكَ سُدَّةٌ وَقُضَائِمَا
وَالرُّسُلُ دُونَ الْعَرْشِ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُمْ

وَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَرَى وَيَشَاءُ
طُوَيْتَ سَمَاءٌ قُلْدَتْكَ سَمَاءُ^(١)
نُونٌ ، وَأَنْتَ النُّقْطَةُ الزَّهْرَاءُ
وَالْكَفُّ ، وَالْمِرَآةُ ، وَالْحَسَنَاءُ
نَزَلًا لِدَاثِكَ لَمْ يَجُزْهُ عِلَاءُ
وَمَنَاكِبُ الرُّوحِ الْأَمِينِ وَطَاءُ
حَاشَا لَغَيْرِكَ مَوْعِدٌ وَلِقَاءُ

★ ★ ★

الْخَيْلُ تَأْبَى غَيْرَ (أَحْمَدَ) حَامِيًا
شَيْخُ الْفَوَارِسِ يَعْلَمُونَ مَكَانَهُ
وَإِذَا تَصَدَّى لِلظُّبَى فَمُهَنَّدٌ
وَإِذَا رَمَى عَنْ قَوْسِهِ فَيَمِينُهُ
مِنْ كُلِّ دَاعِي الْحَقِّ هِمَّةٌ سَيْفِهِ
سَاقِي الْجَرِيحِ وَمُطْعِمُ الْأَسْرَى ، وَمَنْ
إِنَّ الشَّجَاعَةَ فِي الرِّجَالِ غِلَظَةٌ
وَالْحَرْبُ مِنْ شَرَفِ الشُّعُوبِ ، فَإِنْ بَغَوْا
وَالْحَرْبُ يَبْعَثُهَا الْقَوِيُّ تَجَبُّرًا

وَبَهَا إِذَا ذُكِرَ اسْمُهُ خِيَلَاءُ
إِنْ هَيَّجَتْ آسَادَهَا الْهَيْجَاءُ
أَوْ لِلرَّمَاكِحِ فَصَعْدَةٌ سَمْرَاءُ^(٢)
قَدَرٌ ، وَمَا تَرْمِي الْيَمِينَ قِضَاءُ
فَلِسَيْفِهِ فِي الرَّاسِيَّاتِ مَضَاءُ^(٣)
أَمِنْتَ سَنَابِكَ خَيْلِهِ الْأَشْلَاءُ
مَا لَمْ تَزِنْهَا رَأْفَةً وَسَخَاءُ
فَالْمَجْدُ مِمَّا يَدَّعُونَ بَرَاءُ
وَيُنَوُّوْهُ تَحْتَ بَلَائِهَا الضُّعْفَاءُ

(١) غشي المكان يغشاه : أناه .

(٢) الظبي : جمع ظبه ، وهي حد السيف ، والصعدة : القناة المستوية .

(٣) مضى السيف مضاء : قطع .

كَمْ مِنْ غَزَاةٍ لِلرَّسُولِ كَرِيمَةٍ
كَانَتْ لَجُنْدِ اللَّهِ فِيهَا شِدَّةٌ
ضَرَبُوا الضَّلَالَةَ ضَرْبَةً ذَهَبَتْ بِهَا
دَعَمُوا عَلَى الْحَرْبِ السَّلَامَ، وَطَالَمَا

فِيهَا رِضَى لِلْحَقِّ أَوْ إِعْلَاءُ
فِي إِثْرِهَا لِلْعَالَمِينَ رَخَاءُ
فَعَلَى الْجَهَالَةِ وَالضَّلَالِ عَفَاءُ
حَقَنْتَ دِمَاءً فِي الزَّمَانِ دِمَاءُ

★ ★ ★

الْحَقُّ عِرضُ اللَّهِ، كُلُّ أَبِيَّةٍ
هَلْ كَانَ حَوْلَ مُحَمَّدٍ مِنْ قَوْمِهِ
فَدَعَا، فَلَبَّى فِي الْقِبَائِلِ عُصْبَةٌ
رَدُّوا بِبَاسِ الْعِزِّ عَنْهُ مِنَ الْأَذَى
وَالْحَقُّ وَالْإِيمَانُ إِنْ صَبَّأَ عَلَى
نَسَفُوا بِنَاءَ الشَّرْكِ، فَهُوَ خَرَابٌ
يَمْشُونَ تُغْضِي الْأَرْضُ مِنْهُمْ هَيْبَةً
حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ لَهُمْ أَطْرَافُهَا
يَا مَنْ لَهُ عِزُّ الشَّفَاعَةِ وَخُدَّةُ
عَرْشِ الْقِيَامَةِ أَنْتَ تَحْتَ لَوَائِهِ
تُرْوَى وَتُسْقَى الصَّالِحِينَ ثَوَابُهُمْ
أَلَمْ تَلِمْ هَذَا ذُقْتَ فِي الدُّنْيَا الطَّوَى

بَيْنَ النَفُوسِ حِمَى لَهُ وَوَقَاءُ
إِلَّا صَبِيٍّ وَاحِدٌ وَنِسَاءُ؟
مُسْتَضْعَفُونَ، قَلَائِلٌ أَنْضَاءُ^(١)
مَا لَا تَرُدُّ الصَّخْرَةَ الصَّمَاءُ
بَرْدٍ فِيهِ كَتِيبَةٌ خَرَسَاءُ^(٢)
وَاسْتَأْصَلُوا الْأَصْنَامَ، فَهِيَ هَبَاءُ^(٣)
وَبِهِمْ حِيَالٌ نَعِيمُهَا إِغْضَاءُ
لَمْ يُطْغِهِمْ تَرْفٌ وَلَا نَعْمَاءُ
وَهُوَ الْمَنْزَرَةُ، مَا لَهُ شُفْعَاءُ
وَالْحَوْضُ أَنْتَ حِيَالُهُ السَّقَاءُ
وَالصَّالِحَاتُ ذَخَائِرٌ وَجَزَاءُ
وَانشَقَّ مِنْ خَلْقٍ عَلَيْكَ رِدَاءُ؟

(١) النضو: المهزول من الإبل وغيرها.

(٢) الكتيبة الخرساء: التي لا يسمع فيها صوت.

(٣) الهباء: الغبار.

لي في مديحك يا رسول عرائس
هُنَّ الحسانُ، فإنَّ قَبْلَتَ تَكْرُمًا
أنت الذي نَظَمَ البرِّيَّةَ دينُهُ
المُصلِحونَ أَصابعُ جُمِعت يَدًا
ما جِئْتُ بابكَ مادحًا، بل داعيًا
أَدْعُوكَ عن قومي الضَّعَافِ لِأَزمَةٍ
أَدْرِي رَسُولُ اللَّهِ أَنَّ نَفوسَهُم
مَتَفَكِّكونَ، فما تَضَمَّ نَفوسَهُم
رَقَدُوا، وَغَرَّهُم نعيمٌ باطِلٌ

★ ★ ★

ظَلَمُوا شَريعَتَكَ التي نلنا بها
مَشَتْ الحضارةُ في سَناها، واهْتَدَى
صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ ما صَحِبَ الدُّجَى
وَاسْتَقْبَلَ الرِّضْوَانُ في غُرَفَاتِهِم
خيرُ الوسائلِ، مَنْ يَقَعُ مِنْهُمْ على

تُيَمِّنَ فيكَ، وشاقَهُنَّ جَلَاءُ^(١)
فَمُهورهنَّ شَفَاعَةٌ حَسَناءُ
ماذا يَقولُ وَيَنظُمُ الشُّعراءُ؟
هي أنت، بَلْ أَنْتَ اليَدُ البِيضاءُ
ومن المديحِ تضرُّعٌ ودُعاءُ
في مِثلِها يُلقَى عليك رَجاءُ
رَكِبَتْ هَواها، والقلوبُ هَواءُ؟
ثِقَّةٌ، ولا جَمَعَ القلوبَ صفاءُ
وَنَعِيمٌ قومٍ في القِيودِ بلاءُ

ما لَمْ يَنَلْ في رُومَةِ الفُقهاءِ
في الدِّينِ والدُّنيا بها السُّعداءُ
حادٍ، وَحَنَّتْ بالِفا وَجَناءُ^(٢)
بِجَنانٍ عَدْنٍ أَلَكِ السُّمَحاءُ
سَبَبٍ إِلَيْكَ فَحسبي الزَّهراءُ

(١) شاقه الحب: هاجه.

(٢) الوجناء: الناقة الشديدة.

ذكرى المولد

سَلُّوا قَلْبِي غَدَاةً سَلَا وَثَابَا
وَيُسْأَلُ فِي الْحَوَادِثِ ذُو صَوَابٍ
وَكُنْتُ إِذَا سَأَلْتُ الْقَلْبَ يَوْمًا
وَلِي بَيْنَ الضُّلُوعِ دَمٌ وَلَحْمٌ
تَسَرَّبَ فِي الدَّمُوعِ ، فَقُلْتُ : وَلَّى
وَلَوْ خُلِقَتْ قُلُوبٌ مِنْ حَدِيدٍ
وَأَحْبَابٍ سُقِيتُ بِهِمْ سُلَافًا
وَنَادَمْنَا الشَّبَابَ عَلَى بَسَاطٍ
وَكُلُّ بَسَاطٍ عَيْشٍ سَوْفَ يُطَوَّى
كَأَنَّ الْقَلْبَ بَعْدَهُمْ غَرِيبٌ
لَعَلَّ عَلَى الْجَمَالِ لَهُ عِتَابَا
فَهَلْ تَرَكَ الْجَمَالُ لَهُ صَوَابَا ؟
تَوَلَّى الدَّمْعُ عَنْ قَلْبِي الْجَوَابَا
هُمَا الْوَاهِي الَّذِي ثَكَلَ الشَّبَابَا (١)
وَصَفَّقَ فِي الضُّلُوعِ ، فَقُلْتُ : ثَابَا (٢)
لَمَّا حَمَلْتُ كَمَا حَمَلَ الْعَذَابَا
وَكَانَ الْوَصْلُ مِنْ قِصْرِ حَبَابَا (٣)
مِنْ اللَّذَاتِ مُخْتَلِفٍ شَرَابَا
وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ وَطَايَا
إِذَا عَادَتْهُ ذِكْرِي الْأَهْلُ ذَابَا

(١) الواهي: الضعيف. وثكل الشباب: فقده. والمقصود بالدم واللحم هنا القلب.

(٢) ثاب: رجع بعد ذهاب.

(٣) السلاف: خالص الخمر. وحباب الماء: نفاخاته التي تعلوه.

وَلَا يُنْبِئُكَ عَنْ خُلُقِ اللَّيَالِي
 أَخَا الدُّنْيَا، أَرَى دُنْيَاكَ أَفْعَى
 وَأَنَّ الرُّقْطَ أَيْقَظُ هَاجِعَاتٍ
 وَمِنْ عَجَبٍ تُشَيِّبُ عَاشِقِيهَا
 فَمَنْ يَغْتَرُّ بِالدُّنْيَا فَإِنِّي
 لَهَا ضَحِيكَ الْقِيَانِ إِلَى غَبِيٍّ
 جَنَيْتُ بَرَوُضِهَا وَرَدًّا، وَشَوْكًا
 فَلَمْ أَرَ غَيْرَ حُكْمِ اللَّهِ حُكْمًا
 وَلَا عَظَمْتَ فِي الْأَشْيَاءِ إِلَّا
 وَلَا كَرَّمْتَ إِلَّا وَجْهَ حُرٍّ
 وَلَمْ أَرَ مِثْلَ جَمْعِ الْمَالِ دَاءً
 فَلَا تَقْتُلِكَ شَهْوَتُهُ، وَزِنُهَا
 وَخُذْ لِبَنِيكَ وَالْأَيَّامِ ذَخْرًا
 فَلَوْ طَالَعْتَ أَحْدَاثَ اللَّيَالِي
 كَمَنْ فَقَدَ الْأَحِبَّةَ وَالصَّحَابَا
 تُبَدِّلُ كُلَّ آوْنَةٍ إِهَابَا
 وَأَتَرَعُ فِي ظِلَالِ السَّلَامِ نَابَا^(١)
 وَتُفْنِيهِمْ، وَمَا بَرَحَتْ كَعَابَا^(٢)
 لَبِسْتُ بِهَا فَأَبْلَيْتُ الثِّيَابَا
 وَلِي ضَحِيكَ اللَّيْسِبِ إِذَا تَغَابَى^(٣)
 وَذُقْتُ بِكَأْسِهَا شُهْدًا، وَصَابَا
 وَلَمْ أَرَ دُونَ بَابِ اللَّهِ بَابَا
 صَحِيحَ الْعِلْمِ، وَالْأَدَبِ اللَّبَابَا^(٤)
 يُقَلِّدُ قَوْمَهُ الْمِنَنِ الرَّغَابَا^(٥)
 وَلَا مِثْلَ الْبَخِيلِ بِهِ مُصَابَا
 كَمَا تَزِنُ الطَّعَامَ أَوْ الشَّرَابَا
 وَأَعْطِ اللَّهَ حِصَّتَهُ احْتِسَابَا^(٦)
 وَجَدْتَ الْفَقْرَ أَقْرَبَهَا انْتِيَابَا^(٧)

(١) الرقط: جمع رقطاء، وهي الحية على جلدها سواد مشوب بالبياض وأترع: أسرع إلى الشر.

(٢) الكعاب: الجارية الناهد.

(٣) القيان: جمع قينة، وهي الأمة المغنية.

(٤) اللباب: المختار الخالص.

(٥) الأرض الرغاب: التي لا تسيل إلا من مطر كثير.

(٦) احتسب عند الله أمرا: قدمه.

(٧) انتابه: أتاه مرة بعد أخرى.

وَأَنَّ الْبِرَّ خَيْرٌ فِي حَيَاةٍ
وَأَنَّ الشَّرَّ يَصْدَعُ فَاعْلِيهِ
فَرَفَّقَا بِالْبَيْنِ إِذَا اللَّيَالِي
وَلَمْ يَتَقَلَّدُوا شُكْرَ الْيَتَامَى
عَجِبْتُ لِمَعْشَرٍ صَلَّوْا وَصَامُوا
وَتُلْفِيهِمْ حِيَالَ الْمَالِ صُمًّا
لَقَدْ كَتَمُوا نَصِيبَ اللَّهِ مِنْهُ
وَمَنْ يَعْدِلُ بِحُبِّ اللَّهِ شَيْئًا
أَرَادَ اللَّهُ بِالْفُقَرَاءِ بِرًّا
فَرُبَّ صَغِيرٍ قَوْمٍ عَلَّمُوهُ
وَكَانَ لِقَوْمِهِ نَفْعًا وَفَخْرًا
فَعَلَّمْ مَا اسْتَطَعْتَ، لَعَلَّ جِيلًا
وَلَا تُرْهِقُ شَبَابَ الْحَيِّ يَأْسًا
يُرِيدُ الْخَالِقُ الرِّزْقَ اشْتِرَاكًا

وَأَبْقَى بَعْدَ صَاحِبِهِ ثَوَابًا
وَلَمْ أَرَ خَيْرًا بِالشَّرِّ آبَا
عَلَى الْأَعْقَابِ أَوْقَعَتِ الْعِقَابَا
وَلَا اذْرَعُوا الدُّعَاءَ الْمُسْتَجَابَا^(١)
عَوَاهِرَ، خِشْيَةً وَتُقَى كِذَابَا^(٢)
إِذَا دَاعِي الزَّكَاةِ بِهِمْ أَهَابَا^(٣)
كَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يُخْصِ النَّصَابَا
كَحُبِّ الْمَالِ؛ ضَلَّ هَوَى وَخَابَا
وَبِالْأَيْتَامِ حُبًّا وَارْتِبَابَا^(٤)
سَمًا وَحَمَى الْمَسُومَةَ الْعِرَابَا^(٥)
وَلَوْ تَرَكَوهُ كَانَ أَذَى وَعَابَا^(٦)
سَيَأْتِي يُحْدِثُ الْعَجَبَ الْعُجَابَا
فَإِنَّ الْيَأْسَ يَخْتَرِمُ الشَّبَابَا^(٧)
وَإِنْ يَكُ خَصَّ أَقْوَامًا وَحَابَا^(٨)

(١) ادرع : لبس الدرع .

(٢) الكذاب : الكذب .

(٣) أهاب به : دعاه .

(٤) أرتب الصبي ارتبابا : رباه حتى أدرك .

(٥) الخيل المسومة : المرعية والخيل العراب : الكرائم .

(٦) العاب . العيب .

(٧) أرهقه طغيانا : أغشاه إياه . ويخترم الشباب : يستأصله .

(٨) حاباه : اختصه ومال إليه .

فَمَا حَرَمَ الْمُجِدَّ جَنَى يَدَيْهِ
وَلَوْ لَا الْبُخْلُ لَمْ يَهْلِكْ فَرِيقٌ
تَعِبْتُ بِأَهْلِهِ لَوْ مَّا. وَقَبْلِي
وَلَوْ أَنِّي خَطَبْتُ عَلَى جَمَادٍ
أَلَمْ تَرَ لِلْهَوَاءِ جَرَى فَأَفْضَى
وَأَنَّ الشَّمْسَ فِي الْآفَاقِ تَغْشَى
وَأَنَّ الْمَاءَ تُرَوِّى الْأُسْدُ مِنْهُ
وَسَوَّى اللَّهُ بَيْنَكُمْ الْمَنَآيَا
وَأَرْسَلَ عَائِلًا مِنْكُمْ يَتِمُّمَا
نَبِيُّ الْبِرِّ، بَيَّنَّهُ سَبِيلًا
تَفَرَّقَ بَعْدَ عَيْسَى النَّاسُ فِيهِ
وَشَافِي النَّفْسِ مِنْ نَزَغَاتِ شَرٍّ
وَكَانَ يَيَّانُهُ لِلْهَدْيِ سُبُلًا

وَلَا نَسِيَ الشَّقِيَّ، وَلَا الْمُصَابَا^(١)
عَلَى الْأَقْدَارِ تَلْقَاهُمْ غَضَابَا
دُعَاةُ الْبِرِّ قَدْ سَيَّمُوا الْخِطَابَا
فَجَرَّتْ بِهِ الْيَنَابِيْعُ الْعِذَابَا
إِلَى الْأَكْوَاخِ، وَاخْتَرَقَ الْقِيَابَا؟^(٢)
حِمَى كِسْرَى، كَمَا تَغْشَى الْيَبَابَا؟^(٣)
وَيَشْفِي مِنْ تَلْعُلْعِهَا الْكَلَابَا؟^(٤)
وَوَسَّدَكُمْ مَعَ الرُّسُلِ التُّرَابَا^(٥)
دَنَا مِنْ ذِي الْجَلَالِ فَكَانَ قَابَا^(٦)
وَسَنَّ خِلَالَهُ، وَهَدَى الشُّعَابَا^(٧)
فَلَمَّا جَاءَ كَانَ لَهُمْ مَتَابَا^(٨)
كَشَافٍ مِنْ طَبَائِعِهَا الذُّئَابَا^(٩)
وَكَانَتْ خَيْلُهُ لِلْحَقِّ غَابَا

(١) الجنى، ما نجني من الشجر.

(٢) أفضى: بلغ.

(٣) اليباب: القفر.

(٤) تلعلع الكلب: دلع لسانه عطشا.

(٥) سوى: جعلكم فيها سواء.

(٦) عائلا: فقيرا. وقاب القوس: ما بين المقبض والطرف، والمراد أنه كان قريبا.

(٧) الشعاب: الطرق.

(٨) الضمير في «فيه» يعود إلى البر.

(٩) النزغات: الوسوس.

وَعَلَّمَنَا بِنَاءَ الْمَجْدِ، حَتَّى
وَمَا نَيْلُ الْمَطَالِبِ بِالتَّمَنِّي
وَمَا اسْتَعَصَى عَلَى قَوْمٍ مَنَالٌ
أَخَذْنَا إِمْرَةَ الْأَرْضِ اغْتِصَابَا
وَلَكِنْ تُؤْخَذُ الدُّنْيَا غِلَابَا^(١)
إِذَا الْإِقْدَامُ كَانَ لَهُمْ رِكَابَا

★ ★ ★

تَجَلَّى مَوْلِدُ الْهَادِي، وَعَمَّتْ
وَأَسَدَتْ لِلْبَرِّيَّةِ بِنْتُ وَهْبٍ
لَقَدْ وَضَعَتْهُ وَهَّاجًا، مُنِيرًا
فَقَامَ عَلَى سَمَاءِ الْبَيْتِ نَوْرًا
وَضَاعَتْ يَثْرِبُ الْفَيْحَاءِ مِسْكًا
أَبَا الزَّهْرَاءِ، قَدْ جَاوَزَتْ قَدْرِي
فَمَا عَرَفَ الْبَلَاغَةَ ذُو بَيَانَ
مَدَحَتْ الْمَالِكِينَ، فَزِدْتُ قَدْرًا
سَأَلْتُ اللَّهَ فِي أَبْنَاءِ دِينِي
وَمَا لِلْمُسْلِمِينَ سِوَاكَ حِصْنٌ
كَأَنَّ النِّحْسَ حِينَ جَرَى عَلَيْهِمْ
بَشَائِرُهُ الْبَوَادِي وَالْقِصَابَا^(٢)
يَدًا بَيْضَاءَ، طَوَّقَتْ الرِّقَابَا^(٣)
كَمَا تَلِدُ السَّمَاوَاتُ الشُّهَابَا^(٤)
يُضِيءُ جِبَالَ مَكَّةَ وَالنَّقَابَا^(٥)
وَفَاحَ الْقَاعُ أَرْجَاءَ وَطَابَا^(٦)
بِمَدْحِكَ، بَيِّدَ أَنْ لِي انْتِسَابَا
إِذَا لَمْ يَتَّخِذْكَ لَهُ كِتَابَا
فَحِينَ مَدَحْتُكَ اقْتَدَتْ السَّحَابَا
فَإِنْ تَكُنِ الْوَسِيلَةَ لِي أَجَابَا
إِذَا مَا الضُّرُّ مَسَّهُمْ وَنَابَا
أَطَارَ بِكُلِّ مَمْلَكَةٍ غُرَابَا

(١) غلابا : قهرا .

(٢) القصانا : جمع قصبة ، وهي المدينة .

(٣) بنت وهب : السيدة آمنة ، أمه صلى الله عليه وسلم .

(٤) الشهاب : الكواكب .

(٥) نقاب : جمع نقب ، وهو الطريق في الجبل .

(٦) ضاع المسك : تحرك فانتشرت رائحته .

وَلَوْ حَفِظُوا سَبِيلَكَ كَانَ نَوْرًا
بَنَيْتَ لَهُمْ مِنَ الْأَخْلَاقِ رُكْنًا
وَكَانَ جَنَابُهُمْ فِيهَا مَهِيَّبًا
فَلَوْلَاهَا لَسَاوَى اللَّيْثُ ذُبَّابًا
فَإِنْ قُرِنتُ مَكَارِمُهَا بِعِلْمٍ
وَفِي هَذَا الزَّمَانِ مَسِيحُ عِلْمٍ
وَكَانَ مِنَ النَّحُوسِ لَهُمْ حِجَابًا
فَخَانُوا الرُّكْنَ، فَانْهَدَمَ اضْطِرَابًا
وَلِلْأَخْلَاقِ أَجْدَرُ أَنْ تُهَابَا
وَسَاوَى الصَّارِمِ الْمَاضِي قِرَابًا
تَذَلَّلَتِ الْعُلَا بِهِمَا صَعَابَا
يَرُدُّ عَلَى بَنِي الْأُمَمِ الشَّابَا

الفصل الأول

مديح الملوك والخلفاء

أعجب الشاعر العربي بالخلق الحميد والشجاعة الفائقة والكرم الواسع، فأثنى على الرجال المتفوقين والشجعان المشهورين، وامتدح المثل العليا التي رآها عندهم. ولكنه نظر إلى الملوك ومن يليهم منذ الجاهلية نظرة إكبار واحترام لما بين عيشه وعيشهم من فرق شاسع، ولما بين بيته الصغير وقصورهم من مدى يبهر النظر ويسحر القلب. وقد رأى بأم عينه ما بين حياته الفقيرة وحياة الملوك من اختلاف أخذ بمجامع قلبه وحرّك لسانه بالإعجاب.

ففي الجاهلية قام النابغة الذبياني بزيارة الملوك في الشام والعراق، ورأى مظاهر الترف والفخامة التي كان يعيش عليها هؤلاء الملوك، وعاد إلى قومه بصور تعبّر عن حبه لهذه الربوع واحترامه لأهلها ولنظام حياتهم. إنهم ملوك ولكنهم إخوان يحكمون الشاعر الضيف بأموالهم فيشعر أنه بين أهله وأقاربه.

وقد كانت دهشة الشاعر عظيمة حين دخل إلى قصور الملوك، فنسب بناءها إلى الجنّ، فهو لم يشاهد من قبل أعمدة «تدمر» الشامخة، لذلك جعل للنعمان فضلاً على الناس جميعاً وجعله في كرمه شبيهاً بنهر الفرات حين يفيض مأؤه. ثم انتقل إلى تشبيه ممدوحه بالربيع في عطائه والسيف في مضائه:

وَأَنْتَ ربيعٌ ينعشُ الناسَ سيبُهُ وسفُّ أَعيرتُهُ المنيّةُ قاطِعُ

أو إلى تشبيهه بالكواكب :

فإنّك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ إذا طَلَعَتْ لم يبدُ منهمْ كوكبٌ

وقد أجمع النقاد على القول إنّ النابغة هو أول المحترفين في فن المديح .

وقد سار الأعشى على سنّة النابغة ، ولكنّه انحطّ إلى درك التكسّب المشين . ثم تبعه حسان بن ثابت الذي مدح ملوك الغساسنة وامراءهم وذكر ديارهم العامرة ووصف ترفهم ونعيمهم ، حتّى جاء الأخطل شاعر بني أميّة الذي أعاد صورة تدفق الفرات حين مدح كرم عبد الملك بن مروان . ثم تبعه الفرزدق طامعاً في مدح خلفاء بني أميّة ، وما لبث جرير أن لحق برفيقيه مستجدياً في مديحه حيث قال في بني أميّة بحضرة الخليفة عبد الملك :

أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكَبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بِطُونٍ رَاحَ

ولمّا أطلّ العصر العبّاسي تزاحم الشعراء على أبواب الخلفاء يرجون النوال والعطاء ، ولا سيما في مواسم الخلافة والملك وأعياد البلاط ومناسبات الحرب والسلم ، فأضافوا على المعاني القديمة صوراً بديعة تتناسب مع متطلّبات الخلافة . فالخليفة كريم شجاع ، مشرق الوجه ، يصلح الفساد ، ويأمر بالعدل والإحسان ، يتعلّق بالدين ، ويؤمّن العدالة ، ويبسط الأمن ويدافع عن الثغور . ولا ينسى الشاعر أن يذكر حسبه ونسبه ليصل في نهاية الأمر إلى أنّه خير من يمشي على قدم .

فها هو أبو العتاهية يمتدح هارون الرشيد قائلاً :

إذا نُكِبَ الْإِسْلَامُ يَوْمًا بِنُكْبَةٍ فَهَارُونُ مِنْ بَيْنِ الْبَرِيَّةِ نَاصِرُهُ

ثمّ تبعه أبو تمام فرأى في الخليفة مفتاح النصر والظفر . فديوانه حافل بالمديح والإشادة بالانتصارات والفتوحات ، وقد خصّ بمدائحه الخلفاء : المعتصم والواثق والمأمون . ثم جاء البحتري بعد أستاذه لينبري للخليفة المعترز بالله ثم ينتقل بعده

إلى المهتدي فالمتوكل. وأخيرًا أطلّ على مسرح الشعر أبو الطيّب المتنبي فكان خير ممثل لشعراء المديح، فانتقل من ملك إلى ملك ومن أمير إلى أمير وشهرته تسبقه، فاصطاد أبعد الصور وامتطى أجمل التعابير فختم على غيره من الشعراء وسدّ الباب على كبار شعراء المديح قبله وبعده.

وقد ظل شعر المديح المتكسب يتردد على مسامع الناس بعد العصور العباسية، ولكنه سجّل انحدارًا بعد هذا العلوّ الشاهق. فأصبح الشعراء يلحّون في طلب المال فيبيعون شعرهم ونفوسهم. وإن كان المتنبي قد طلب في شعره ضيعة أو ولاية من ممدوحه فإنّ الشاعر عمارة اليمني طلب من أحد الممدوحين قائلاً:

فَأَمْنُنْ عَلَيَّ بِنَصْفِ الْأَلْفِ رَاتِبَةً فَقَدَرْتُ وَدَّكَ لَا يَخْوِيهِ مِقْدَارُ
مقسومة في شهور العام تحمل لي أقساطها كلّ شهرٍ وهي إدرارُ

فهو يطلب المبلغ ويرى قسمته على أشهر السنة أقساطًا يعيش بها شهريًا. وهذا سقوط ظاهر في القول والعمل إلى مرتبة التسوّل.

وقد ظلّ شعراء القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين يقلّدون الشعر القديم ويتخذون من ألفاظه ومعانيه ميدانًا يرتعون فيه. فها هو البارودي يعيد للمديح أسلوبه المتين ووجهه الأصيل في مدح الخديوي، ثم يسير حافظ إبراهيم على منوال القدماء في نصرة الملوك للدين ورفعة الإسلام وتقليد الخلفاء الراشدين لعلّ الإسلام يستعيد مكانته ويرتفع لواؤه في كلّ جانب. ثم لا يلبث أحمد شوقي أن يحمل لواء المديح في هذا العصر، فيمتدح العظماء لعكوفهم على الدين ونصرتهم للإسلام، فهو كشعرائنا القدماء سواء بسواء. ولكنّ شوقي لا يقف عند هذه الحدود بل يعود إلى ماضي مصر فيمتدح ملوكها القدماء وينتقل إلى ملوك مصر المعاصرين.

الأخطل في مدح عبد الملك بن مروان

الشاعر هو غياث بن غوث التغلبيّ (١٩ هـ / ٦٤٠ م - ٩٠ هـ / ٧٠٨ م) شاعر مصقول الألفاظ، حسن الديباجة، في شعره إبداع. اشتهر في عهد بني أمية بالشّام، وأكثر من مدح ملوكهم. وهو أحد الثلاثة المتّفق على أنّهم أشعر عصرهم: جرير، والفرزدق، والأخطل. نشأ على المسيحيّة، واتّصل بالأمويّين، فكان شاعرهم.

وممدوحه هو عبد الملك بن مروان بن الحكم الأمويّ (٢٦ هـ / ٦٤٦ م - ٨٦ هـ / ٧٠٥ م). من أعظم الخلفاء ودهاتهم، وهو أوّل من عربّ الدواوين، وأوّل من نقش بالعربيّة على الدراهم. نشأ في المدينة، وتوفّي بدمشق.

★ ★ ★

إلى أمرىء لا تعدّينا نوافله أظفّره الله فليهنئ له الظفر^(١)
الخائض الغمر والميمون طائره خليفة الله يستسقى به المطر^(٢)
وما الفرات إذا جاشت حوالبه في حافتيه وفي أوساطه العشر^(٣)

(١) تعدّينا: تفوتنا. نوافله: عطاياه.

(٢) الغمر: الماء الغزير. الميمون طائره: كناية عن حسن الحظّ.

(٣) جاشت: هاجت. حوالبه: أمواجه. العشر: نوع من الشجر.

وَذَعْدَعَتُهُ رِيَّاحُ الصَّيْفِ وَأَضْطَرَبَتْ
مُسْحَنَفِرٌ مِنْ جِبَالِ الرُّومِ يَسْتُرُهُ
يَوْمًا بِأَجْوَدَ مِنْهُ حِينَ تَسْأَلُهُ
مُقْتَرِشٌ كَأَفْتِرَاشِ اللَّيْثِ كَلْكَلَهُ
مُقَدَّمٌ مَائَتِي أَلْفٍ لِمَنْزِلِهِ
يَغْشَى الْقَنَاطِرَ يَبْنِيهَا وَيَهْدِمُهَا
حَتَّى يَكُونَ لَهُمْ بِالْطِفِّ مَلْحَمَةٌ
وَتَسْتَبِينَ أَقْصَامٌ ضَلَّالَتُهُمْ
ثُمَّ اسْتَقَلَّ بِأَثْقَالِ الْعِرَاقِ وَقَدْ
فِي نَبْعَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ يَعْصِبُونَ بِهَا
تَعْلُو الْهَضَابَ وَحَلُّوا فِي أَرْوَمَتِهَا
فَوْقَ الْجَاجِيٍّ مِنْ آذِيٍّ غُدْرٌ (١)
مِنْهَا أَكَايِفٌ فِيهَا دُونُهُ زَوْرٌ (٢)
وَلَا بِأَجْهَرَ مِنْهُ حِينَ يُجْتَهِرُ (٣)
لِوَقْعَةٍ كَائِنٍ فِيهَا لَهُ جَزْرٌ (٤)
مَا إِنْ رَأَى مِثْلَهُمْ جِنَّ وَلَا بَشَرٌ
مُسَوِّمٌ فَوْقَهُ الرَّايَاتُ وَالْقَتَرُ (٥)
وَبِالشَّوِيَّةِ لَمْ يَنْبُضْ بِهَا وَتَرٌ (٦)
وَيَسْتَقِيمُ الَّذِي فِي خَدِّهِ صَعْرٌ (٧)
كَانَتْ لَهُ نِقْمَةٌ فِيهِمْ وَمَدَّخَرٌ (٨)
مَا إِنْ يُوَازِي بِأَعْلَى نَبْتِهَا الشَّجَرُ (٩)
أَهْلُ الرِّيَاءِ وَأَهْلُ الْفَخْرِ إِنْ فَخَرُوا (١٠)

-
- (١) ذعذعته: حركته بعنف. الجاجي: ج «جوجؤ»، وهو الصدر. الآذي: الموج المرتفع.
(٢) مسحنفر: سريع. الأكاييف: المرتفعات. الزور: الاعوجاج.
(٣) أجهر: أعظم. يجتهر: يستعظم.
(٤) الكلكل: الصدر. الوقعة: المعركة. جزر: ما استبيح ذبحه.
(٥) مسوم: فيه علامة مميزة. القتر: الغبار.
(٦) الطف والشوئية: موضعان قرب الكوفة. لم ينبض بها وتر: كناية عن عدم استعمال القسي ورمي السهام.
(٧) صعر: كبرياء.
(٨) النقمة: البلاء الحسن. المدخر: ما يخبأ للأعداء من بطش وغيره.
(٩) النبعة: نوع من الشجر. يعصبون بها: يلتفون حولها. يوازي: يساوي.
(١٠) الأرومة: الأصل. الرياء: العظمة والشرف.

حُشِدٌ عَلَى الْحَقِّ عَيَّافُو الْخَنَى أَنْفٌ
أَعْطَاهُمُ اللَّهُ جَدًّا يُنْصَرُونَ بِهِ
لَمْ يَأْشُرُوا فِيهِ إِذْ كَانُوا مَوَالِيَهُ
شُمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ
لَا يَسْتَقِيلُ ذَوُو الْأَضْغَانِ حَرْبَهُمْ
هُمْ الَّذِينَ يُبَارُونَ الرِّيَّاحَ إِذَا
بَنِي أُمِّيَّةٌ نِعْمَاكُمْ مُجَلَّلَةٌ
إِذَا أَلَمْتَ بِهِمْ مَكْرُوهَةً صَبَرُوا^(١)
لَا جَدًّا إِلَّا صَغِيرٌ بَعْدُ مُحْتَقَرٌ^(٢)
وَلَوْ يَكُونُ لِقَوْمٍ غَيْرِهِمْ أَشْرُوا^(٣)
وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدِرُوا^(٤)
وَلَا يُبَيِّنُ فِي عِيدَانِهِمْ خَوْرٌ^(٥)
قَلَّ الطَّعَامُ عَلَى الْعَافِينَ أَوْ قَتَرُوا^(٦)
تَمَّتْ فَلَا مِنَّةَ فِيهَا وَلَا كَدْرٌ.

★ ★ ★

(١) حُشِدٌ: متأهبون. عَيَّافُو: كارهو. الْخَنَى: الذل. أَنْفٌ: مترفعون عن الدنيا.

(٢) الْجَدُّ: الحظ.

(٣) لَمْ يَأْشُرُوا: لَمْ يَبْطُرُوا. مَوَالِيهِ: أصحابه أو أهله.

(٤) شُمْسُ الْعَدَاوَةِ: أشداء. يُسْتَقَادُ لَهُمْ: يخضع لهم. أَحْلَامًا: عقلاً.

(٥) ذَوُو الْأَضْغَانِ: أصحاب الحقد، أي الأعداء. خَوْرٌ: ضعف.

(٦) الْعَافِينَ: الفقراء.

جرير في مدح عبد الملك بن مروان

الشاعر هو جرير بن عطية اليربوعي (٦٤٠ م / ٢٨ هـ - ٧٢٨ م / ١١٠ هـ).
أشعر أهل عصره. عاش عمره يتبادل الهجاء وشعراء زمانه، فلم يثبت أمامه غير
الفرزدق والأخطل. ورغم اشتهاره بالهجاء، حتى عُده أهجى شعراء العربية، فهو
من أغزل الناس شعراً. وفيما يلي نموذج من شعره المدحي.

وأما الممدوح فقد سبق التعريف به منذ قليل.

★ ★ ★

رَأَيْتَ الْمُرْدِينَ ذَوِي لِقَاحٍ ^(١)	تَعَزَّتْ أُمُّ حَزْرَةَ ثُمَّ قَالَتْ
بَأَنْفَاسٍ مِنْ الشَّيْمِ الْقِرَاحِ ^(٢)	تُعَلِّلُ وَهِيَ سَاغِبَةٌ بَيْنَهَا
أَذَاةَ اللَّوْمِ وَانْتَظِرِي امْتِيَا حِي ^(٣)	سَأَمْتَا حُ الْبُحُورَ فَجَنَّبِينِي
وَمِنْ عِنْدِ الْخَلِيفَةِ بِالنَّجَاحِ	ثَقِي بِاللَّهِ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ
بَسَيْبٍ مِنْكَ إِنَّكَ ذُو ارْتِيَا حِ ^(٤)	أَغْنِنِي يَا فَدَاكَ أَبِي وَأُمِّي
زِيَارَتِي الْخَلِيفَةَ وَامْتِدَا حِي	فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ عَلَيَّ حَقًّا

(١) أم حزرة: زوج جرير. الموردين: أي أصحاب الابل التي يوردونها الماء. اللقاح: جمع لقوح: الناقة الحلوب.

(٢) تعلل: تشغل وتلهي. ساغبة: جائعة. الشيم: البارد من الماء. القراح: الصافي.

(٣) متح الماء: استقاه واستخرجه من البئر، والمراد العطاء الذي يناله من الخليفة.

(٤) السيب: العطاء. الارتياح والأريحية: الاهتزاز للعطاء.

- سَأَشْكُرُ إِنْ رَدَدْتَ عَلَيَّ رِيشِي وَأَنْبَتَ الْقَوَادِمَ فِي جَنَاحِي^(١)
- أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَاحٍ^(٢)
- وَقَوْمٍ قَدْ سَمَوْتَ لَهُمْ فِدَانُوا يَدَهُمْ فِي مَلَمَمَةٍ رَدَاحٍ^(٣)
- أَبَحْتَ حِمَى تِهَامَةٍ بَعْدَ نَجْدٍ وَمَا شَيْءٌ حَمَيْتَ بِمُسْتَبَاحٍ^(٤)
- لَكُمْ شُمُّ الْجِبَالِ مِنَ الرِّوَاسِي وَأَعْظَمُ سَيْلٍ مُعْتَلِجِ الْبَطَاحِ^(٥)
- دَعَوْتَ الْمُلْحِدِينَ أَبَا خُبَيْبٍ جَمَاحًا هَلْ شُفِيتَ مِنَ الْجِمَاحِ^(٦)
- فَقَدْ وَجَدُوا الْخَلِيفَةَ هَبْرَزِيًّا أَلْفَ الْعَيْصِ لَيْسَ مِنَ النَّوَاحِي^(٧)
- فَمَا شَجَرَاتُ عَيْصِكَ فِي قُرَيْشٍ بَعْشَاتِ الْفُرُوعِ وَلَا ضَوَاحِي^(٨)
- رَأَى النَّاسُ الْبَصِيرَةَ فَاسْتَقَامُوا وَبَيَّنَّتِ الْمِرَاضُ مِنَ الصَّحَاحِ^(٩)



- (١) القوادم: جمع قادمة: الريش في مقدم الجناح، وهو كبار الريش، الخوافي ضدها، والمراد سأشكر إن أكرمتني وأعززتني.
- (٢) المطايا: جمع مطية. الراح: جمع راحة. بطن الكف.
- (٣) سموت لهم: خرجت إليهم محارباً. دانوا: خضعوا. جيش دهم: كثير. كتيبة ملممة: كثيرة مجتمعة. رداح: ثقيلة فخمة.
- (٤) أبحت: حلت. الحمى: ما يحميه الإنسان ويمنعه.
- (٥) شم الجبال: أعاليها. اعتلجت الأرض: طال نبتها، والأمواج: التطمت. البطاح: جمع بطحاء: مسيل واسع فيه حصى دقيق. يشير إلى أصالة نسبه وعظم سلطانه.
- (٦) الملحد: المائل عن الدين الطاعن فيه. أبو خبيب: كنية عبدالله بن الزبير الخارج على بني أمية. جماح: نافرين، والجماح: العناد والخلاف.
- (٧) الهبرزي: الأسد. ألف: كثير ملتف. العيص: الشجر الكثير، والمراد الأصيل، النواحي: البعداء. أي وجدوك قوياً كريم الأصل.
- (٨) العشات: جمع العشة: الشجرة اللثيمة المنبت الدقيقة القضبان الضواحي: جمع الضاحية: الشجرة البادية العيدان ولا ورق عليها.
- (٩) البصيرة: العبرة والفتنة. المراض: جمع مريض: الباطل والمعوج وضده الصحيح.

أبو نواس في مدح هارون الرشيد

الشاعر هو الحسن بن هانئ (٧٦٢ م / ١٤٥ هـ - ٨١٣ م / ١٩٨ هـ). نشأ في البصرة يعبّ من العلوم بذكاء متوقّد، ويتلمذ لبعض المجّان والخلعاء. عاش في السكر واللهو والمجون. هو شاعر الخمرة بلا منازع، ومع ذلك قال الكثير من الغزل. والأنثى والخمرة متلازمان.

والممدوح هو هارون الرشيد ابن محمد (المهديّ) ابن المنصور العبّاسيّ (١٤٩ هـ / ٧٦٦ م - ١٩٣ هـ / ٨٠٩ م) خامس خلفاء الدولة العبّاسيّة في العراق. وأشهرهم. وكان عالمًا بالأدب، وأخبار العرب، والحديث، والفقه، شجاعًا، كثير الغزوات، حازمًا، كريمًا، لقّب بجبار بني العبّاس، ولم يجتمع على باب خليفة ما اجتمع على باب من العلماء، والشعراء، والكتّاب، والندماء.

★ ★ ★

حَيِّ الدِّيَارَ، إِذِ الزَّمَانُ زَمَانُ وَإِذِ الشَّبَاكُ لَنَا حَرَى وَمَعَانُ^(١)
يَا حَبِّذَا سَفَوَانُ مِنْ مُتَرَبِّعٍ وَلَرُبَّمَا جَمَعَ الْهَوَى سَفَوَانُ^(٢)

-
- (١) حَرَى: كَعَلَى هو حراء جبل بمكة فيه غار تَحَنَّث فيه النبي (ﷺ). ومعان: موضع بطريق حاجّ الشام. والشَّبَاك: جمع شبكة والمعنى أن في حري ومعان شباك الهوى نُصِيبَنَا لَنَا لِيَصْطَدَّنَا.
(٢) سفوان: موضع بالبصرة. المُتَرَبِّع: اسم للمكان الذي ينزله القوم أيام الربيع.

وَإِذَا مَرَرْتَ عَلَى الدِّيَارِ مُسَلِّمًا
 إِنَّا نَسَبْنَا، وَالْمُنَاسِبُ ظَنَّةٌ
 لَمَّا نَزَعْتُ عَنِ الْغَوَايَةِ وَالصَّبَا
 سَبَطُ مَشَافِرُهَا، دَقِيقُ خَطْمُهَا
 وَاحْتَازَهَا لَوْنٌ جَرَى فِي جِلْدِهَا
 وَإِلَى أَبِي الْأَمْنَاءِ هَارُونَ الَّذِي
 مَلِكٌ تَصَوَّرَ فِي الْقُلُوبِ مِثَالُهُ
 مَا تَنْطَوِي عَنْهُ الْقُلُوبُ بِفَجْرَةٍ
 فَيَظَلُّ لَاسْتِنْبَائِهِ، وَكَأَنَّهُ
 هَارُونُ الْأَفْنَا ائْتِلَافَ مَوَدَّةٍ
 فِي كُلِّ عَامٍ غَزْوَةٌ وَوِفَادَةٌ

فَلِغَيْرِ دَارٍ أُمَيَّةَ الْهَجْرَانُ
 حَتَّى رُمِيتِ بِنَا وَأَنْتِ حَصَانُ^(١)
 وَخَدَتْ بِي الشَّدَنِيَّةُ الْمِذْعَانُ^(٢)
 وَكَأَنَّ سَائِرَ خَلْقِهَا بُنْيَانُ^(٣)
 يَقُقُّ كَقِرطَاسِ الْوَلِيدِ، هِجَانُ^(٤)
 يَحْيَا بِصَوْبِ سَمَائِهِ الْحَيَوَانُ^(٥)
 فَكَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُ مِنْهُ مَكَانُ
 إِلَّا يُكَلِّمُهُ بِهَا اللَّحْظَانُ^(٦)
 عَيْنٌ عَلَى مَا غَيَّبَ الْكِتْمَانُ
 مَاتَتْ لَهَا الْأَحْقَادُ وَالْأَضْغَانُ
 تَنَبَّتْ بَيْنَ نَوَاهُمَا الْأَقْرَانُ^(٧)

-
- (١) نَسَبْنَا: شَبَبْنَا وَتَغَزَّلْنَا. الظَّنَّةُ: التُّهْمَةُ. الْحَصَانُ: الْمَرْأَةُ الْعَفِيفَةُ أَوْ الْمَتَزَوِّجَةُ.
- (٢) نَزَعْتُ عَنِ الْغَوَايَةِ: تَرَكْتُهَا وَابْتَعَدْتُ عَنْهَا. وَخَدَتْ: سَارَتْ. الشَّدَنِيَّةُ: النَّاقَةُ مَنْسُوبَةٌ إِلَى مَوْضِعٍ بِالْيَمَنِ. الْمِذْعَنُ: الْمَطِيْعَةُ الْخَاضِعَةُ.
- (٣) السَّبَطُ: الْمُسْتَرْسِيلُ ضِدَّ الْجَعْدِ. الْمَشَافِرُ لِلْأَبْلِ كَالشِّفَاهِ لِلْإِنْسَانِ. الْخَطْمُ: الْأَنْفُ؛ وَإِنَّمَا شَبَّهَ خَلْقَهَا بِالْبُنْيَانِ لَضَخَامَتِهَا وَارْتِفَاعِهَا.
- (٤) احْتَازَهَا: ضَمَّهَا وَجَمَعَهَا وَالْمَقْصُودُ شَمْلُهَا. يَقُقُّ: شَدِيدُ الْبَيَاضِ. هِجَانُ: الْهَجَانُ الْخَالِصُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.
- (٥) الْحَيَوَانُ: الْحَيَاةُ. قَالَ تَعَالَى: وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. وَالْمُرَادُ بِالسَّمَاءِ الْمَطَرُ.
- (٦) بِفَجْرَةٍ: بِفَجْورٍ وَخِيَانَةٍ. اللَّحْظَانُ: مَصْدَرُ لِحْظٍ أَيِ نَظَرٍ بِمُؤَخَّرِ عَيْنَيْهِ، وَهُوَ أَشَدُّ مِنَ الشُّزْرِ.
- (٧) الْوِفَادَةُ: مَصْدَرُ وَفَدَ. وَتَنَبَّتْ: تَنَقَّطَ. وَالنَّوَى: الْوَجْهَ يُذْهَبُ فِيهِ. وَالْأَقْرَانُ: جُورُنْ، وَالْقِرْنُ لِلْإِنْسَانِ مِثْلُهُ فِي الشَّجَاعَةِ وَالشَّدَةِ وَالْعِلْمِ وَالْقِتَالِ.

حَجَّ وَغَزَوْ مَاتَ بَيْنَهُمَا الْكَرَى
يَرْمِي بِهِنَّ نِيَاطَ كُلِّ تَنُوفَةٍ
حَتَّى إِذَا وَاجَّهْنَ أَقْبَالَ الصَّفَا
لَا غَرَوْ يَنْفَرُجُ الدُّجَى عَنْ وَجْهِهِ
يَصْلَى الْهَجِيرَ بِغُرَّةٍ مَهْدِيَّةٍ
أَلْفَتْ مُنَادِمَةَ الدَّمَاءِ سِيُوفُهُ
حَتَّى الَّذِي فِي الرَّحْمِ لَمْ يَكُ صُورَةً
حَذَرَ أَمْرِي قُصِرَتْ يَدَاهُ عَلَى الْعَدَا
مَتَبَرِّجُ الْمَعْرُوفِ عَرِيضُ النَّدَى
لِلْجُودِ مِنْ كِلْتَا يَدَيْهِ مُحَسَّرُكُ
بِالْيَعْمَلَاتِ شِعَارُهَا الْوَحْدَانُ^(١)
فِي اللَّهِ رَحَالٌ بِهَا، ظَعَانُ^(٢)
حَنِّ الْحَطِيمِ، وَأُطَّتِ الْأَرْكَانُ^(٣)
إِنَّ التَّقِيَّ مُسَدَّدٌ وَمُعَانُ^(٤)
لَوْ شَاءَ صَانَ أَدِيمَهَا الْأَكْنَانَ^(٥)
فَلَقَلَّمَا تَحْتَازُهَا الْأَجْفَانُ^(٦)
لِفُؤَادِهِ مِنْ خَوْفِهِ خَفَقَانُ^(٧)
كَالدَّهْرِ فِيهِ شَرَاسَةٌ وَلِيَانُ
حَصِيرٌ بَلَا مِنْهُ فَمٌّ وَلِسَانُ^(٨)
لَا يَسْتَطِيعُ بِلُوغَةِ الْإِسْكَانُ

-
- (١) اليعملات: النياق السريعة. الوحدان: نوع من سيرها.
(٢) النياط: الفؤاد. والتنوفة: المفازة ظعان: مبالغة من طاعن أي مسافر.
(٣) أقبال الصفا: الأقبال جمع قُبْل وهو من الجبل سَفْحُهُ. الحطيم: ما بين الركن وزمزم والمقام. وأُطَّتِ الأركان: صوتت.
(٤) يصلى الهجير: يكابده، والهجير شدة الحر. والأديم: الجلد. الأكنان: جمع كِن وهو الستر والبيت.
(٥) أجفان السيوف: غمودها.
(٦) قوله لم يك صورة أي لم يتشكَّل بعدُ والجملة من الذي، وهذا البيت في المبالغة كقوله: وأخفت أهل الشُّرك حتى أنه لتخافُك النُّطفُ التي لم تُخلَقِ
(٧) متبرج المعروف: أي مُظهر له وهو مُدِلُّ به كما تتبرج المرأة باظهار زينتها عجبًا وإدلالًا. وقوله: عريضُ الندى: أي مُعْترِضٌ به لطلابه. حَصِيرٌ بلا: أي لا ينطق «لا» في كلام.
(٨) حَصِيرٌ بلا: أي لا ينطق «لا» في كلام.

وقال يُعزِّي الأمين^(١) ويمدحه:

نُعزِّي أمير المؤمنين مُحَمَّدًا	على خَيْر مَيِّتٍ غَيَّبَتْهُ المقَابِرُ
وإنَّ أمير المؤمنين مُحَمَّدًا	لرابطُ جَاشٍ للخطوبِ وصَابِرُ
زَهَتْ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٍ	أَسِرَّةُ مُلْكٍ، واستقرَّتْ منَابِرُ
فلا زِلْتَ للإسلام عِزًّا وناصِرًا	كما أَنْتَ للإسلام عِزٌّ وناصِرُ
ولا زِلْتَ مَرْعِيًّا بِعَيْنِ حَفِظَةٍ	مَنْ اللهُ لا تَسْطُو عَلَيْكَ المقَادِرُ
تسوسُ أُمُورَ النَّاسِ تَسْعِينَ حَجَّةً	وهَدْيُكَ محمودٌ وعِرْضُكَ وافرُ

(١) هو الخليفة العباسي محمد بن هارون الرشيد (١٧٠ هـ / ٧٨٧ م - ١٩٨ هـ / ٨١٣ م). كان أبيض، طويلًا، سمينًا، جميل الصورة، شجاعًا، أديبًا، رقيق الشعر، مُكثِرًا من إنفاق الأموال، سيء التدبير، يُؤخذ عليه انصرافه إلى اللهو، ومجالسة الندماء.

أبو تمام في مدح المعتصم

هو حبيب بن أوس الطائي (١٨٨ هـ / ٨٠٤ م - ٢٣١ هـ / ٨٤٦ م). شاعر مجيد وأحد أمراء البيان. كان أسمر طويلًا، فصيحًا، حلو اللسان، يحفظ أربعة آلاف أرجوزة من أراجيز العرب غير القصائد والمقاطيع. له تصانيف منها: «فحول الشعراء»، و«ديوان الحماسة».

والممدوح هو محمد بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور (١٧٩ هـ / ٧٩٥ م - ٢٢٧ هـ / ٨٤١ م). خليفة من أعظم الخلفاء العباسيين. بنى مدينة سامراء حين ضاقت بغداد بجنده، وهو أول من أضاف إلى اسمه اسم الله تعالى، من الخلفاء، فقليل: «المعتصم بالله»، وكان ليّن العريكة، رضي الخلق، اتسع ملكه جدًا.

أمّا مناسبة القصيدة، فقد هاجم امبراطور الروم بلدتي «زبطرة» و«مُلطية» فاحتلّهما، وأعملُ فيهما القتل والسبي. ويروى أنّ عربيّةً من السّبايا صاحت مستغيثة: «وا مُعْتَصِمَاه»، فبلغ الخبرُ المعتصمَ، فقال: «لَبَيْكُ لَبَيْكُ»، فهاجم «عمورية» واحتلّها، واستباحها هدمًا، وإحراقًا، وقتلًا، وسبيًا، فقال أبو تمام في المناسبة:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ^(١)

(١) المقصود بالكتب في هذا البيت كتب السحر والتنجيم التي زعم أصحابها بأنّ عمورية لن تفتح في الوقت الذي غزاها المعتصم.

فَتَحُ الْفُتُوحِ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ بِهِ
يَا يَوْمَ وَقَعَةِ عَمُورِيَّةَ انصَرَفَتْ
أَبْقَيْتَ جَدَّ بَنِي الْإِسْلَامِ فِي صُعْدٍ
لَقَدْ تَرَكْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا
غَادَرَتْ فِيهَا بِهِمَ اللَّيْلِ وَهُوَ ضَحَى
حَتَّى كَانَ جَلَابِيبَ الدُّجَى رَغِبَتْ
ضَوْءُ مِنَ النَّارِ وَالظُّلُمَاءُ عَاكِفَةٌ
فَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ مِنْ ذَا وَقَدْ أَفَلَتْ
تَدْبِيرُ مُعْتَصِمٍ بِاللَّهِ مُنْتَقِمٍ
لَمْ يَغْزُ قَوْمًا وَلَمْ يَنْهَضْ إِلَى بَلَدٍ
لَوْ لَمْ يَقْدُ جَحْفَلًا يَوْمَ الْوَغَى لَغَدَا
رَمَى بِكَ اللَّهُ بُرْجِيهَا فَهَدَمَهَا
لَبَّيْتَ صَوْتًا زِبْطَرِيًّا هَرَقْتَ لَهُ

نَظَمَ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ نَثَرَ مِنَ الْخُطْبِ
عَنْكَ الْمَنَى حُفْلًا مَعْسُولَةَ الْحَلَبِ^(١)
وَالْمُشْرِكِينَ وَدَارَ الشَّرْكِ فِي صَبَبٍ^(٢)
لِلنَّارِ يَوْمًا ذَلِيلَ الصَّخْرِ وَالْخَشْبِ
يَشْلُهُ وَسَطَهَا صَبَحَ مِنَ اللَّهَبِ^(٣)
عَنْ لَوْنِهَا أَوْ كَانَ الشَّمْسُ لَمْ تَغِبِ^(٤)
وَطُلْمَةٌ مِنْ دُخَانٍ فِي ضَحَى شَحِبِ
وَالشَّمْسُ وَاجِبَةٌ مِنْ ذَا وَلَمْ تَجِبِ^(٥)
لِلَّهِ مُرْتَغِبٍ فِي اللَّهِ مُرْتَقِبِ
إِلَّا تَقَدَّمَ جَيْشٌ مِنَ الرُّعْبِ
مِنْ نَفْسِهِ وَحَدَّهَا فِي جَحْفَلٍ لَجِبِ^(٦)
وَلَوْ رَمَى بِكَ غَيْرُ اللَّهِ لَمْ يُصِيبِ...
كَأَسَ الْكَرَى وَرُضَابَ الْخُرْدِ الْعُرْبِ^(٧)

- (١) حفلاً: مليئة. معسولة الحلب: حليبها مخلوط بالعسل.
- (٢) جدّ: حظّ. صعد: علوّ وارتفاع. صبيب: انخفاض.
- (٣) بهيم الليل: أسوده. يشله: يطرده.
- (٤) جلابيب: ج «جلباب» وهو الثوب الفضفاض، وهنا كناية عن شدة الظلام. رغبت عن الشيء: نركته.
- (٥) وجبت الشمس: غابت.
- (٦) الجحفل: الجيش الكثير. الوغى: الحرب. لجب: كثير ذو ضجة.
- (٧) زبطرياً: نسبة إلى زبطرة، وهنا إشارة إلى المرأة التي صاحت: «وامعتصماه» عندما ساقها الأعداء إلى الأسر بعد عذبيها. هرقت: صببت. الكرى: النوم. الخرد: ج «خريدة» وهي الفتاة العذراء. العرب: ج عروب وهي المرأة المحبة لزوجها.

أَجَبْتُهُ مُعَلِّناً بِالسَّيْفِ مُنْصَلِّتَا
تِسْعُونَ أَلْفًا كَأَسَادِ الشَّرَى نَضَجَتْ
وَالْحَرْبُ قَائِمَةٌ فِي مَازِقٍ لَجِبِ
كَمْ نِيلَ تَحْتَ سَنَاهَا مِنْ سَنَّا قَمَرِ
كَمْ كَانَ فِي قَطْعِ أَسْبَابِ الرِّقَابِ بِهَا
خَلِيفَةُ اللَّهِ جَازَى اللَّهُ سَعْيَكَ عَنْ
بَصُرْتَ بِالْوَاخَةِ الْكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا
إِنْ كَانَ بَيْنَ صُرُوفِ الدَّهْرِ مِنْ رَحِمِ
فَبَيْنَ أَيَّامِكَ اللَّاتِي نُصِرْتَ بِهَا
أَبَقْتُ بَنِي الْأَصْفَرِ الْمُصَفَّرَ كَأَسْمِهِمْ

وَلَوْ أَجَبْتَ بِغَيْرِ السَّيْفِ لَمْ تُجَبِ^(١)
جُلُودُهُمْ قَبْلَ نَضَجِ التِّينِ وَالْعِنَبِ^(٢)
تَجَشُّو الرِّجَالَ بِهِ صُغْرًا عَلَى الرُّكَبِ^(٣)
وَتَحْتَ عَارِضِهَا مِنْ عَارِضِ شَنِيبِ^(٤)
إِلَى الْمُخَدَّرَةِ الْعَذْرَاءِ مِنْ سَبَبِ^(٥)
جُرْثُومَةِ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ وَالْحَسَبِ
تَنَالُ إِلَّا عَلَى جِسْرِ مِنَ التَّعَبِ
مَوْصُولَةٍ أَوْ ذِمَامٍ غَيْرِ مُنْقَضِبِ^(٦)
وَبَيْنَ أَيَّامِ بَدْرِ أَقْرَبِ النَّسَبِ^(٧)
صُفْرَ الْوُجُوهِ وَجَلَّتْ أَوْجُهُ الْعَرَبِ^(٨)

★ ★ ★

-
- (١) منصلتا: مسلولا.
(٢) نضج التين والعنب: إشارة إلى الصيف.
(٣) المأزق: الطريق الصعبة والضيقة. صغرا: متضايقا.
(٤) سناها: بريقها. عارض شنب: جميل الوجه.
(٥) المخدرة: الفتاة المصونة في خدرها.
(٦) صروف الدهر: مصائبه. الرحم: صلة القرابة. منقضب: مقطوع.
(٧) أيام بدر: إشارة إلى المعركة التي خاضها الرسول (ﷺ) ضد قريش وانتصر فيها.
(٨) بنو الأصفر: كناية عن الروم. جلّت: رفعت وأعزت.

أبو تمام في مدح المعتضد بالله

سبق التعريف بالشاعر منذ قليل، وأمّا الممدوح فهو الخليفة العباسي أحمد بن طلحة بن جعفر (المتوكل) (٢٤٢ هـ / ٨٥٧ م - ٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م). أظهر بسالة ودراية في حروبه مع الزنج والأعراب، وهو في سنّ الشباب. كان شجاعاً، ذا عزم، مهيباً عند أصحابه يتقنون سطوته، ويكفّون عن الظلم خوفاً منه، وكان عارفاً بالأدب، موصوفاً بالحلم إلا في مواضع الشدة. قال ابن دحية: «هو أحد رجال بني العباس الخمسة، أقام العدل، وبذل المال، وأصلح الحال». وفيما يلي أبيات من قصيدة قالها أبو تمام في مدحه.

★ ★ ★

إلى قُطْبِ الدُّنْيَا الَّذِي لَوْ بِفَضْلِهِ	مَدَحْتُ بَنِي الدُّنْيَا كَفَّتْهُمْ فَضَائِلُهُ
مَنْ أَلْبَسُ وَالْمَعْرُوفُ وَالْجُودُ وَالتَّقَى	عِيَالٌ عَلَيْهِ رِزْقُهُنَّ شَمَائِلُهُ
هُوَ الْبَحْرُ مِنْ أَيْ النَّوَاحِي أَتَيْتُهُ	فَلَجَّتْهُ الْمَعْرُوفُ وَالْجُودُ سَاحِلُهُ
تَعَوَّدَ بَسَطَ الْكَفِّ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ	ثَنَاهَا لِقَبْضٍ لَمْ تُطِعْهُ أَنْامِلُهُ
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ نَفْسِهِ	لَجَادَ بِهَا فَلَيَّتْ قِرَ اللَّهِ سَائِلُهُ

عليّ بن الجهم في مدح المتوكل العباسي

هو عليّ بن الجهم بن بدر من لؤي بن غالب (٠٠٠ - ٢٤٩ هـ / ٨٦٣ م) أديب من أهل بغداد . خصّ بالمتوكل العباسي ومدحه ، ثمّ غضب عليه المتوكل ، فنفاه إلى خراسان . له ديوان شعر .

أمّا المتوكل العباسي ، فهو الخليفة جعفر بن محمد (المعتصم بالله) بن هارون الرشيد . كان جوادًا محبًا للعمران ، من آثاره « المتوكلية » ببغداد . كثرت الزلازل في أيامه فعمر بعض ما خربت . كان يلبس في زمن الورد الثياب الحمر ، ويأمر بالفرش الأحمر ، ولا يرى الورد إلّا في مجلسه ، وكان يقول : أنا ملك السلاطين ، والورد ملك الرياحين ، وكلّ منّا أولى بصاحبه .

وفيما يلي مقتطفات من قصيدة ألقاها علي بن الجهم في مدحه .

وللشَّعْرِ أَتْبَاعٌ كَثِيرٌ وَلَمْ أَكُنْ	لَهُ تَابِعًا فِي حَالِ عُسْرِ وَلَا يُسْرِ
وَلَكِنْ إِحْسَانَ الْخُلَيْفَةِ جَعَفَرٍ	دَعَانِي إِلَى مَا قُلْتُ فِيهِ مِنَ الشَّعْرِ
فَسَارَ مَسِيرَ الشَّمْسِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ	وَهَبَّ هُبُوبَ الرِّيحِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
وَلَوْ جَلَّ عَنْ شُكْرِ الصَّنِيعَةِ مُنِعَ	لَجَلَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الشُّكْرِ
وَمَنْ خَالَ أَنَّ الْبَحْرَ وَالْقَطْرَ أَشْبَهَا	نَدَاهُ ، فَقَدْ أَثْنَى عَلَى الْبَحْرِ وَالْقَطْرِ .

★ ★ ★

البحترى في مدح المتوكل على الله

الشاعر هو الوليد بن عبيد بن يحيى الطائسي (٢٠٦ هـ / ٨٢١ م - ٢٨٤ هـ / ٨٩٨ م) شاعر كبير، وُصف شعره بأنه «سلاسل الذهب»، وهو أحد الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء عصرهم: المتنبي، وأبو تمام، والبحتري. سئل أبو العلاء المعري: أيّ الثلاثة أشعر؟ فقال: المتنبي وأبو تمام حكيمان، وإنما الشاعر البحتري، اتصل بالمتوكل العباسي، ومدحه، وفيما يلي مقتطفات من قصيدة قالها في مدحه:

أَبْرَ عَلَى الْأَنْوَاءِ نَائِلُكَ الْغَمْرُ	وَبِنْتَ بِفَخْرٍ مَا يُشَاكِلُهُ فَخْرُ
وَأَنْتَ أَمِينُ اللَّهِ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي	أَبَى اللَّهُ أَنْ يَسْمُوَ إِلَى قَدْرِهِ قَدْرُ
تَحَسَّنْتَ الدُّنْيَا بَعْدَ لِكَ فَاعْتَدْتَ	وَأَفَاقُهَا بِيضٌ وَأَكْنَافُهَا خُضْرُ
هَنِيئًا لِأَهْلِ الشَّامِ إِنَّكَ سَائِرُ	إِلَيْهِمْ مَسِيرَ الْقَطْرِ يَتَّبِعُهُ الْقَطْرُ
تَفِيضُ كَمَا فَاضَ الْغَمَامُ عَلَيْهِمْ	وَتَطْلُعُ فِيهِمْ مِثْلَمَا يَطْلُعُ الْبَدْرُ

وقال يمدحه من قصيدة

أَيُّهَا الْعَاتِبُ الَّذِي لَيْسَ يَرْضَى نَمَ هَنِيئًا فَلَسْتُ أُطْعَمُ غَمَضًا

إِنَّ لِي مِنْ هَوَاكَ وَجْدًا قَدِ اسْتَهَدَ
 فَجَفُونِي فِي عِبْرَةٍ لَيْسَ تَرْقَا
 رِدْ حِيَاضَ الْإِمَامِ تَلْقَ نَوَالًا
 هُوَ أُنْدَى مِنَ الْغَمَامِ وَأَوْفَى
 يَتَوَخَّى الْإِحْسَانَ قَوْلًا وَفِعْلًا
 بِنْتَ بِالْفَضْلِ وَالْعُلُوِّ فَأَصْبَحُ
 وَأَرَى الْمَجْدَ بَيْنَ عَارِفَةٍ مِنْ
 مَلِكِ نَوْمِي وَمَضْجِعًا قَدْ أَقْضَا^(١)
 وَفُؤَادِي فِي لَوْعَةٍ مَا تَقْضَى^(٢)
 يَسْعُ الرَّاغِبِينَ طُولًا وَعَرْضًا
 وَقَعَاتٍ مِنَ الْحُسَامِ وَأَمْضَى
 وَيُطِيعُ الْإِلَهَ بَسْطًا وَقَبْضًا
 تَ سَمَاءَ وَأَصْبَحَ النَّاسُ أَرْضًا
 لَكَ تُرْجَى وَعَزْمَةٌ مِنْكَ تُمَضَى

(١) خشن

(٢) أي تقضى.

حافظ إبراهيم في مدح عمر بن الخطاب

الشاعر هو محمد حافظ بن إبراهيم فهمي المهندس الشهير بحافظ إبراهيم (١٢٨٧ هـ / ١٨٧١ م - ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م) شاعر مصر القومي، ومدون أحداثها نيّفاً وربع قرن. لقّب بـ «شاعر النيل». كان قويّ الحافظة راوية، سميراً، مرحاً، حاضر النكتة، جهوريّ الصوت، بديع الإلقاء، كريم اليد في حالي بؤسه ورخائه، مهذب النفس، وفي شعره إبداع في الصّوغ امتاز به عن أكثر أقرانه.

وأما الممدوح فهو عمر بن الخطاب بن نفيل القرشيّ (٤٠ ق هـ / ٥٨٤ م - ٢٣ هـ / ٦٤٤ م) ثاني الخلفاء الراشدين، وأوّل من لقّب بأمر المؤمنين، الصّحابيّ الجليل، الشجاع الحازم. صاحب الفتوحات، يُضرب بعده المثل. كان في الجاهليّة من أبطال قريش وأشرافهم، وهو أحد العمرين اللذين كان النبيّ (ﷺ) يدعو ربّه أن يعزّ الإسلام بأحدهما.

وفيما يلي مقتطفات قالها حافظ إبراهيم في مدح عمر، أنشدها مساء الجمعة في ٨ فبراير (شباط) سنة ١٩١٨، نقتطف منها ما يلي:

حَسْبُ الْقَوَافِي وَحَسْبِي حِينَ أُلْقِيَهَا أَنِّي إِلَى سَاحَةِ الْفَارُوقِ^(١) أَهْدِيهَا
لَا هُمْ^(٢) هَبْ لِي بَيَانًا أَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى قَضَاءِ حُقُوقِ نَامٍ قَاضِيهَا

(١) الفاروق: لقب أطلقه النبي (ﷺ) على عمر، لأنّه فرّق بين الحق والباطل.

(٢) لا هُمْ: أي اللّهُمَّ.

إسلام عُمَر

رَأَيْتَ فِي الدِّينِ آرَاءَ مُوَفَّقَةً فَأَنْزَلَ اللَّهُ قُرْآنًا يُزَكِّيْهَا (١)
وَكُنْتَ أَوَّلَ مَنْ قَرَّتْ بِصُحْبَتِهِ عَيْنُ الْحَنِيفَةِ (٢)، وَاجْتَازَتْ أَمَانِيَهَا

عُمَرُ وَبَيْعَةُ أَبِي بَكْرٍ (٣)

وَمَوْقِفِي لَكَ بَعْدَ الْمُصْطَفَى افْتَرَقْتُ فِيهِ الصَّحَابَةُ لَمَّا غَابَ هَادِيْهَا (٤)
بَايَعْتَ فِيهِ أَبَا بَكْرٍ فَبَايَعَهُ عَلَى الْخِلَافَةِ قَاصِيْهَا وَدَانِيْهَا
وَأُطْفِئْتُ فِتْنَةً لَوْلَاكَ لَأَسْتَعَرْتُ (٥) بَيْنَ الْقَبَائِلِ، وَأَنْسَابَتْ أَفَاعِيْهَا
بَاتَ النَّبِيُّ مُسَجَّى (٦) فِي حَظِيرَتِهِ وَأَنْتَ مُسْتَعِرُّ الْأَحْشَاءِ دَامِيْهَا
تَهِيمُ بَيْنَ عَجِيجِ النَّاسِ فِي دَهْشٍ مِنْ نَبَأَةٍ قَدْ سَرَى فِي الْأَرْضِ سَادِيْهَا (٧)

(١) يُزَكِّيْهَا: يُعَزِّزُهَا وَيُؤَيِّدُهَا. ويُشير الشاعر بهذا البيت إلى ما كان من عمر حين كان يرى الرأي، فينزل به القرآن، حتى موافقاته نيفًا وعشرين آية، منها آية التحريم في الخمر، لما قال: «اللَّهُمَّ، بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا»، ومنها آية الاستئذان في الدخول، وذلك أنه دخل عليه غلامه، وكان نائمًا، فقال: «اللَّهُمَّ حَرِّمِ الدَّخُولَ»، فنزلت آية الاستئذان... الخ.

(٢) الحنيفية: الإسلام.

(٣) يُشير إلى اختلاف المسلمين في يوم السَّقِيفَةِ بعد موت النبي (ﷺ)، وما كاد يلحقهم من انقسام الكلمة وتفرق الشمل في اختيار خليفة لهم، وإلى فضل عمر بن الخطاب، في مبايعة أبي بكر الصديق بالخلافة، فالتأم شمل المسلمين.

(٤) غاب هاديها: مات نبيها.

(٥) لاستعرت: لاشتعلت وتأججت.

(٦) سَجَّى الميت: مدَّ عليه ثوبه، وغطَّى به.

(٧) تهيمُ: تذهبُ دون أن تدري إلى أين. عجيج: صياح. نبأة: صوت خفي. ويُشير الشاعر بهذا البيت والأبيات التالية إلى ما تولى عُمَر والناس من الدهْشِ بوفاة النبي (ﷺ)، حتى إنَّ عُمَرَ هَدَّدَ بقطع رأس كل من يقول: «مات محمد»، حتى جاءهم أبو بكر، فذكَّروهم بقوله =

تَصِيحُ: مَنْ قَالَ نَفْسُ الْمُصْطَفَى قُبِضَتْ
 أَنْسَاكَ حُبَّكَ طَه^(٢) أَنَّهُ بَشَرٌ
 وَأَنَّهُ وَارِدٌ، لَا بُدَّ، مَوْرَدُهُ
 نَسِيتَ فِي حَقِّ طَه آيَةً نَزَلَتْ
 عَلَوْتُ هَامَتَهُ بِالسَّيْفِ أُبْرِيهَا^(١)
 يُجْرِي عَلَيْهِ شُؤْنِ الْكَوْنِ مُجْرِيهَا
 مِنَ الْمَنِيَّةِ لَا يُعْفِيهِ سَاقِيهَا
 وَقَدْ يُذَكَّرُ بِالْآيَاتِ نَاسِيهَا^(٣)

عمر وعلي^(٤)

وَقَوْلُهُ لِعَلِيٍّ قَالَهَا عُمَرُ
 حَرَقْتُ دَارَكَ لَا أُبْقِي عَلَيْكَ بِهَا
 مَا كَانَ غَيْرُ أَبِي حَفْصٍ يَفْوُهُ بِهَا
 كَلَاهُمَا فِي سَبِيلِ الْحَقِّ عَزَمَتُهُ
 أَكْرَمَ بِسَامِعِهَا، أَعْظَمَ بِمُلْقِيهَا
 إِنْ لَمْ تُبَايَعْ وَبِنْتُ الْمُصْطَفَى فِيهَا
 أَمَامَ فَارِسِ عَدْنَانَ وَحَامِيهَا^(٥)
 لَا تَنْشِي أَوْ يَكُونِ الْحَقُّ ثَانِيهَا

= نعالى: «وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل» (آل عمران: ١٤٤)، فعاد عمر والناسُ معه إلى صوابهم.

(١) المصطفى: النبي محمد (ﷺ). هامته: أعلى رأسه. وانظر المقصود من هذا البيت في الهامش السابق.

(٢) طه: النبي محمد (ﷺ).

(٣) يُشير إلى الآية الكريمة: «وما محمدٌ إلا رسولٌ خلت من قبله الرسل» (آل عمران: ١٤٤).

(٤) يُشير الشاعر بالأبيات الأربعة التالية إلى امتناع عليٍّ عن البيعة لأبي بكر يوم السَّقِيفَةِ، وتهديد عمر له بإحراق بيته إذا استمرَّ على امتناعه، وكانت فيه فاطمة بنت الرسول (ﷺ) زوجة عليٍّ.

(٥) أبو حفص: كنية عمر. فارس عدنان: لقب علي بن أبي طالب.

عمر وجبله بن الأيهم^(١)

كَمْ خِفْتَ فِي اللَّهِ مَضْعُوفًا دَعَاكَ بِهِ
وَفِي حَدِيثٍ فَتَى غَسَّانَ مَوْعِظَةً
فَمَا الْقَوِيُّ قَوِيًّا رَغَمَ عِزَّتِهِ
وَمَا الضَّعِيفُ ضَعِيفًا بَعْدَ حُجَّتِهِ
وَكَمْ أَخَفْتَ قَوِيًّا يَنْشِي تَيْهَا^(٢)
لِكُلِّ ذِي نَعْرَةٍ يَأْبَى تَنَاسِيهَا^(٣)
عِنْدَ الْخُصُومَةِ وَالْفَارُوقُ قَاضِيهَا
وَإِنْ تَخَاصَمَ وَالْيَهَا وَرَاعِيهَا

عُمَرُ وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ^(٤)

سَلْ قَاهِرَ الْفُرْسِ وَالرُّومَانِ : هَلْ شَفَعْتُ
غَزَا فَأَبْلَى وَخَيْلُ اللَّهِ قَدْ عَقِدَتْ
يَرْمِي الْأَعَادِي بِآرَاءِ مُسَدَّدَةٍ
مَا وَقَعَ الرُّومَ إِلَّا فَرَّ قَارِحُهَا
لَهُ الْفُتُوحُ، وَهَلْ أَغْنَى تَوَالِيهَا^(٥)
بِالْيَمَنِ وَالنَّصْرِ وَالْبُشْرَى نَوَاصِيهَا^(٦)
وَبِالْفَوَارِسِ قَدْ سَالَتْ مَذَاكِهَا^(٧)
وَلَا رَمَى الْفُرْسَ إِلَّا طَاشَ رَامِيهَا

(١) كان جبله بن الأيهم أحد أبناء الغساسنة ملوك الشام، فاعتنق الإسلام. وبينما هو يطوف إذ وطئ أعرابي ثوبه، فلطمه جبله وهشم أنفه، فشكاه الأعرابي إلى عُمَرَ، فأمر أن يُقْتَصَّ منه، فهرب جبله إلى القسطنطينية، وعاد إلى النصرانية.

(٢) مَضْعُوفًا: ضعيفًا، والقياس مُضْعَفًا. ينشي: يتميل، ويتبَخَّر. تَيْهَا: كبرًا.

(٣) فَتَى غَسَّانَ: المقصود جبله بن الأيهم. نَعْرَة، بفتح العين، وسكنت للضرورة الشعرية، ومعناه الخيلاء والتكبر.

(٤) يُشير الشاعر في الأبيات التالية إلى قصة عزل عمر بن الخطاب لخالد بن الوليد، وإسناده قيادة الجيش العامة إلى أبي عبيدة بن الجراح، وكان خالد، آنذاك، في إبان انتصاراته، وقبل أمر عُمَرَ، وبقي طوال حياته مُطيعًا له، وقبل موته أوصاه بأولاده.

(٥) قاهر الفرس والرومان هو خالد بن الوليد.

(٦) النواصي: جمع ناصية، وهي مقدمة الرأس.

(٧) المذاكي: الخيل التي اكتملت قوتها. وانسيال المذاكي كناية عن انتشارها وكثرتها تشبيهًا بانسيال الماء.

وَلَمْ يَجُزْ بَلَدَةً إِلَّا سَمِعَتْ بِهَا
عِشْرُونَ مَوْقِعَةً مَرَّتْ مُحَجَّلَةً
وَخَالِدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مُوقِدُهَا
أَتَاهُ أَمْرُ أَبِي حَفْصٍ فَقَبَّلَهُ
وَأَسْتَقْبَلَ الْعَزَلَ فِي إِبَانِ سَطْوَتِهِ
أَلْقَى الْقِيَادَ إِلَى الْجِرَاحِ مُمْتَثِلًا
وَأَنْضَمَّ لِلْجُنْدِ يَمْشِي تَحْتَ رَايَتِهِ
وَمَا عَرَّتْهُ شُكُوكٌ فِي خَلِيفَتِهِ

اللَّهُ أَكْبَرُ تَدْوِي فِي نَوَاحِيهَا
مِنْ بَعْدِ عَشْرِ، بَنَانُ الْفَتْحِ تُحْصِيهَا^(١)
وَخَالِدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ صَالِيهَا^(٢)
كَمَا يُقَبِّلُ آيَ اللَّهِ تَالِيهَا^(٣)
وَمَجْدِهِ مُسْتَرِيحَ النَّفْسِ هَادِيهَا
وَعِزَّةَ النَّفْسِ لَمْ تُجْرَحْ حَوَاشِيهَا^(٤)
وَبِالْحَيَاةِ إِذَا مَالَتْ يُفَدِّيهَا
وَلَا ارْتَضَى إِمْرَةً الْجِرَاحِ تَمْوِيهَا

عمر وابنه عبدالله^(٥)

وَمَا وَقَى ابْنُكَ عَبْدُ اللَّهِ أَيْنُقَهُ
رَأَيْتَهَا فِي حِمَاهُ وَهِيَ سَارِحَةٌ
فَقُلْتُ: مَا كَانَ عَبْدُ اللَّهِ يُشْبِعُهَا
قَدْ اسْتَعَانَ بِجَاهِي فِي تِجَارَتِهِ

لَمَّا أَطْلَعْتَ عَلَيْهَا فِي مَرَاغِيهَا^(٦)
مِثْلَ الْقُصُورِ قَدْ أَهْتَزَّتْ أَعَالِيهَا
لَوْ لَمْ يَكُنْ وَلَدِي أَوْ كَانَ يُرْوِيهَا
وَبَاتَ بِاسْمِ أَبِي حَفْصٍ يُنْمِيهَا

(١) مُحَجَّلَةٌ: واضحة، مشرقة بالانتصار فيها.

(٢) صَالِيهَا: يُقَاسِي حَرَّهَا وَشِدَّتَهَا.

(٣) أَبُو حَفْصٍ هُوَ عُمَرُ نَفْسِهِ.

(٤) الْجِرَاحُ هُوَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجِرَاحِ.

(٥) يُشِيرُ الشَّاعِرُ إِلَى مَا يُرْوَى مِنْ أَنَّهُ مَرَّ، يَوْمًا، بِبَنُو قَدْ بَدَّتْ عَلَيْهَا آثَارُ النِّعْمَةِ، فَسَأَلَ عَنْ صَاحِبِهَا، فَقِيلَ لَهُ: عَبْدُ اللَّهِ، فَسَاقَهَا إِلَى بَيْتِ الْمَالِ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ ثَرَوَةَ ابْنِهِ لَا تَفِي لَهَا، وَأَنَّهُ لَوْلَا جَاهُهُ بَيْنَ النَّاسِ مَا قَدَّرَ عَلَى إِطْعَامِهَا.

(٦) أَيْنُقَهُ: نِيَاقَهُ.

رُدُّوا النَّيَاقَ لِبَيْتِ الْمَالِ إِنَّ لَهُ حَقَّ الزِّيَادَةِ فِيهَا قَبْلَ شَارِيهَا

عمر ورسول كسرى^(١)

وَرَاغَ صَاحِبَ كِسْرَى أَنْ رَأَى عُمَرَا
وَعَهْدُهُ بِمَلُوكِ الْفُرْسِ أَنَّ لَهَا
رَأَاهُ مُسْتَغْرِقًا فِي نَوْمِهِ، فَرَأَى
فَوْقَ الثَّرَى تَحْتَ ظِلِّ الدَّوْحِ مُشْتَمِلًا
فَهَانَ فِي عَيْنِهِ مَا كَانَ يُكْبِرُهُ
وَقَالَ قَوْلَةً حَقٌّ أَصْبَحَتْ مَثَلًا
أَمِنْتَ لَمَّا أَقَمْتَ الْعَدْلَ بَيْنَهُمْ
بَيْنَ الرَّعِيَّةِ عُطْلًا وَهُوَ رَاعِيهَا^(٢)
سُورًا مِنَ الْجُنْدِ وَالْأَحْرَاسِ يَحْمِيهَا
فِيهِ الْجَلَالَةُ فِي أَسْمَى مَعَانِيهَا
بِبُرْدَةٍ كَادَ طُولُ الْعَهْدِ يُبْلِيهَا^(٣)
مِنَ الْأَكَاسِرِ وَالْدُّنْيَا بِأَيْدِيهَا
وَأَصْبَحَ الْجَيْلُ بَعْدَ الْجَيْلِ يَرْوِيهَا:
فَنِمْتَ نَوْمَ قَرِيرِ الْعَيْنِ هَانِيهَا

مثال من رحمته^(٤)

وَمَنْ رَأَاهُ أَمَامَ الْقِدْرِ مُنْبَطِحًا وَالنَّارُ تَأْخُذُ مِنْهُ وَهُوَ يُذَكِّيهَا^(٥)

(١) يشير الشاعر في الأبيات التالية إلى ما يروى من أنه لما جاء رسول كسرى إلى عمر، وجده راقداً على الرمل، جاعلاً منه وسادة أسند إليها رأسه، فوقف أمامه خاشعاً، وقال عبارته المألوفة: عَذَلْتُ، يا عمر، وأمنت، فنمت.

(٢) عُطْلًا: متجرّداً من مظاهر الأبهة.

(٣) الدَّوْحُ: جمع دوحه، وهي الشجرة الكبيرة المتسعة الظل. واشتمل الرجل ثوبه: تلفّف به وأداره على جسده.

(٤) يشير الشاعر في الأبيات التالية إلى ما يروى من أن عمر رأى امرأة توقد النار على حصى وماء، تُشغل بذلك أولادها عن طلب الطعام حتى يناموا، فحمل إليها عمر من بيت المال شيئاً من الدقيق، وجلس وساعدها في إشعال النار، ولم ينصرف حتى أكل الأطفال وناموا.

(٥) يذكيها: يشعلها.

وَقَدْ تَخَلَّلَ فِي أَثْنَاءِ لِحْيَتِهِ
رَأَى هُنَاكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى
يَسْتَقْبِلُ النَّارَ خَوْفَ النَّارِ فِي غَدِهِ
مِنْهَا الدُّخَانُ وَفُوهُ غَابَ فِي فِيهَا^(١)
حَالٍ تَرَوُّعُ لَعَمْرُ اللَّهِ رَائِيهَا
وَالْعَيْنُ مِنْ خَشْيَةٍ سَالَتْ مَاقِيهَا

مثال من رجوعه إلى الحق^(٢)

وَفِتْيَةٍ وَلِعُوا بِالرَّاحِ فَانْتَبَذُوا
ظَهَرَتْ حَائِطُهُمْ لَمَّا عَلِمَتْ بِهِمْ
حَتَّى تَبَيَّنَتْهُمْ وَالْخَمْرُ قَدْ أَخَذَتْ
سَفَهَتْ آرَاءَهُمْ فِيهَا فَمَا لَبُّوا
وَرُمَتْ تَفْقِيهِهِمْ فِي دِينِهِمْ فَإِذَا
قَالُوا: مَكَانَكَ قَدْ جِئْنَا بِوَاحِدَةٍ
فَأَتِ الْبُيُوتَ مِنَ الْأَبْوَابِ، يَا عُمَرُ
لَهُمْ مَكَانًا، وَجَدُّوا فِي تَعَاطِيهَا
وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرُ الْأَرْجَاءِ سَاجِيهَا^(٣)
تَعْلُو ذُؤَابَةَ سَاقِيهَا وَحَاسِيهَا^(٤)
أَنْ أَوْسَعُوكَ عَلَى مَا جِئْتَ تَسْفِيهَا^(٥)
بِالشَّرْبِ قَدْ بَرَعُوا الْفَارُوقَ تَفْقِيهَا^(٦)
وَجِئْتَنَا بِثَلَاثٍ لَا تُبَالِيهَا^(٧)
فَقَدْ يُزَنُّ مِنَ الْحِيطَانِ آتِيهَا^(٨)

-
- (١) أي قمه غاب في فم النار وهو يشعلها.
(٢) يُشير الشاعر بالأبيات التالية إلى ما رُوي من أن عمر تَسَوَّرَ الحائط على جماعة يشربون الخمر يريد أن يُباغتهم، فأنكروا عليه ثلاثة أمور: ١ - دخوله عليهم من غير الباب. ٢ - عدم استئذانه. ٣ - تجسسه عليهم، وكل من هذه الأمور الثلاثة نهى الله عنها، فغلبوه بالحجة، فأنشئ عنهم.
(٣) ظَهَرَتْ حَائِطُهُمْ: عَلَوَتْهُ. اللَّيْلُ السَّاجِي: الساكن.
(٤) الذُؤَابَةُ: الضفيرة من الشعر، والمراد بها، هنا، أعلى الرأس. حَاسِيهَا: شاربها.
(٥) فِيهَا: أي في الخمر.
(٦) الشَّرْبُ: الشَّارِبُونَ. بَرَعُوا: قَامُوا. الْفَارُوقُ: لقب عمر.
(٧) أَي نَحْنُ أَتَيْنَا بِمَعْصِيَةٍ، وَأَنْتَ أَتَيْتَ بِثَلَاثٍ.
(٨) يُزَنُّ: يُتَّهَمُ.

وَأَسْتَأْذِنِ النَّاسَ أَنْ تَغْشَى بُيُوتَهُمْ
وَلَا تَجَسَّسْ، فَهَٰذَا الْآيُ قَدْ نَزَلَتْ
فَعُدَّتْ عَنْهُمْ وَقَدْ أَكْبَرْتَ حُجَّتَهُمْ
وَمَا أَنْفَتَ وَإِنْ كَانُوا عَلَى حَرَجٍ
وَلَا تُلِمَّ بِيَدَارٍ أَوْ تُحَيِّيَهَا
بِالنَّهْيِ عَنْهُ، فَلَمْ تَذْكُرْ نَوَاهِيهَا^(١)
لَمَّا رَأَيْتَ كِتَابَ اللَّهِ يُمْلِيهَا
مِنْ أَنْ يَحُجَّكَ بِالآيَاتِ عَاصِيهَا^(٢)

(١) أي: لا تدخل الدار حتى تستأذن وتسلم على أهلها.
(٢) الحرج: الإثم. يحجك. يغلبك بالحجة.

صفي الدين الحلّي في مدح الملك الناصر

الشاعر هو عبد العزيز بن سرايا (١٢٧٨ م / ٦٧٧ هـ - ١٣٤٩ م / ٧٥٠ هـ).
شاعر عصره، له مؤلفات عدّة في الشعر، والزجل، والأغلاط اللغويّة، وغيرها.

والممدوح هو محمد بن قلاوون بن عبد الله الصالحيّ (٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م -
٧٤١ هـ / ١٣٤١ م) من كبار ملوك الدولة القلاوونيّة. له آثار عمرانيّة ضخمة،
وتاريخ حافل بجلال الأعمال. كان غايةً في الكرم، قيل: وهب في يوم واحد ما
يزيد على مئة ألف دينار ذهبًا.

وفيما يلي مقتطفات من قصيدة لصفي الدين الحلّي قالها في مدحه عند قدومه
إلى الحجاز.

مَلِكٌ يَرَى تَعَبَ الْمَكَارِمِ رَاحَةً	وَيَعُدُّ رَاحَاتِ الْقِرَاعِ مَتَاعِبًا
بِمَكَارِمٍ تَذَرُ السَّبَاسِبَ أَبْحُرًا	وَعَزَائِمٍ تَذَرُ الْبَحَارَ سَبَاسِبًا
تُرْجَى مَوَاهِبُهُ وَيُرْهَبُ بَطْشُهُ	مِثْلَ الزَّمَانِ مُسَالِمًا وَمُحَارِبًا
فَإِذَا سَطَا مَلَأَ الْقُلُوبَ مَهَابَةً	وَإِذَا سَخَا مَلَأَ الْعُيُونَ مَوَاهِبًا
أَبْقَى قَلَاوُنُ الْفِخَارَ لِوَلَدِهِ	إِرثًا وَقَازُوا بِالشَّاءِ مَكَاسِبًا

قَوْمٌ إِذَا سَمُّوا الصَّوَّافِينَ^(١) صَيَّرُوا
عَشِقُوا الْحُرُوبَ تَيْمَنًا بِلِقَا الْعِدَى
يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْعَزِيزُ وَمَنْ لَهُ
أَصْلَحَتْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ بِهِمَّةٍ
وَحَرَسَتْ مُلْكَكَ مِنْ رَجِيمٍ مَارِدٍ
لَا يَنْفَعُ التَّجْرِبُ خَصْمَكَ بَعْدَ مَا
وَجَعَلْتَ هَامَاتِ الْكُمَاةِ مَنَابِرًا
وَبَذَلْتَ لِلْمُدَّاحِ صَفْوَ خَلَائِقٍ
لَمْ يَمْلَأُوا فِيكَ الْبُيُوتَ غَرَائِبًا
لَوْ أَنَّ أَعْضَانَا جَمِيعًا أَلْسُنٌ
لِلْمَجْدِ أَخْطَارَ الْأُمُورِ مَرَائِبًا
فَكَأَنَّهُمْ حَسِبُوا الْعُدَاةَ حَبَائِبًا
شَرَفٌ يَجُرُّ عَلَى النُّجُومِ ذَوَائِبًا
تَذَرُ الْأَجَانِبَ بِالْوَدَادِ أَقَارِبًا
بِعَزَائِمٍ إِنْ صُلْتَ كُنَّ قَوَاضِبًا
أَفْنَيْتَ مَنْ أَفْنَى الزَّمَانَ تَجَارِبًا
وَأَقَمْتَ حَدَّ السَّيْفِ فِيهَا خَاطِبًا
لَوْ أَنَّهَا لِلْبَحْرِ طَابَ مَشَارِبًا
إِلَّا وَقَدْ مَلَأُوا الْبُيُوتَ رَغَائِبًا
تُثْنِي عَلَيْكَ لَمَّا قَضَيْنَ الْوَاجِبَا

وله من قصيدة يمدح بها السلطان الملك المنصور

نجم الدين أبا الفتح غازي بن ارتق

إِنْ لَمْ أَزُرْ رَبَّعَكُمْ سَعِيًّا عَلَى الْحَدَقِ
تَبَّتْ^(٢) يَدَيَّ إِنْ ثَنَّنِي عَنْ زِيَارَتِكُمْ
يَا جِирَةَ الْحَيِّ هَلَّا عَادَ وَصْلُكُمْ
لَا تَنْكُرُوا فَرَقِي مِنْ بَعْدِ بُعْدِكُمْ
هَبَّ النَّسِيمُ عِرَاقِيًّا فَشَبَّوَقْنِي
فَمَا تَنْفَسْتُ وَالْأَرْوَاحُ سَارِيَّةٌ
فَإِنَّ وَدِّيَ مَنْسُوبٌ إِلَى الْمَلَقِ
بِضُّ الصَّفَّاحِ وَلَوْ سُدَّتْ بِهَا طُرُقِي
لِمُدْنِفٍ مِنْ خُمَارِ الْوَجْدِ لَمْ يُفِقِ
إِنَّ الْفِرَاقَ لَمْشَتْقٌ مِنَ الْفَرَقِ
وَطَالَمَا هَبَّ نَجْدِيًّا فَلَمْ يَشُقِ
إِلَّا أَشْتَكَّتْ نَسَمَاتُ الرِّيحِ مِنْ حُرْقِي

(١) جمع صافن هو من الخيل القائم على ثلاث.

(٢) هلكت وضلت.

ذَرُّ أَيُّهَا الصَّبُّ تَذَكَارِ الدِّيَارِ إِذَا
 فَهَذِهِ شُهْبُ الشَّهْبَاءِ سَاطِعَةٌ
 سَمَاءٌ مَجْدٍ بَدَا فِيهَا فَزَيَّنَهَا
 مَلِكٌ غَدَا الْجُودُ جُزْءًا مِنْ أَنْامِلِهِ
 أَغَادَ لَيْلَ الْوَرَى صُبْحًا وَكَمْ رَكَضَتْ
 لَوْلَا أَبُو الْفَتْحِ نَجْمُ الدِّينِ مَا فُتِحَتْ
 مَلِكٌ بِهِ أَكْتَسَتْ الْأَيَّامُ ثَوْبَ بَهَا
 يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ طَائِرُهُ
 أَحَبَّتْ بِالْجُودِ آثَارَ الْكِرَامِ وَقَدْ
 لَوْ أَشْبَهَتْكَ بِحَارُ الْأَرْضِ فِي كَرَمٍ
 لَوْ أَشْبَهَ الْغَيْثُ جُودًا مِنْكَ مِنْهُمْ رَا
 كَمْ قَدْ أَبَدَتْ مِنَ الْأَعْدَاءِ مَنْ فِئَةٍ
 بِكُلِّ أَبْيَضٍ دَامِي الْخَدِّ تَحْسَبُهُ
 فَاسْتَبَشَرَتْ فِئَةُ الْإِسْلَامِ إِذْ لَمَعَتْ
 وَأَصْبَحَ الْعَدْلُ مَرْفُوعًا عَلَى نَشْرِ^(١)
 كَمْ قَدْ قَطَعْتَ إِلَيْكَ الْبَيْدَ مُمْتَطِيًا
 يَدُلُّنِي فِي الدُّجَى مُهْرِي وَيُؤْنِسُنِي
 وَاللَّيْلُ أَطْوَلُ مِنْ عَذْلِ الْعَذُولِ عَلَى

(١) النشز المكان المرتفع.

مُتَّعَتْ فِيهَا بَعِيشٍ غَيْرِ مُتَّسِقِ
 وَهَذِهِ نَسْمَةُ الْفَرْدَوْسِ فَاَنْتَشِقِ
 نَجْمٌ تَخِرُّ لَدَيْهِ أَنْجُمُ الْأُفُقِ
 فَلَوْ تَكَلَّفَ تَرَكَ الْجُودِ لَمْ يُطِيقِ
 جِيَادُهُ فَأَرَتْنَا الصُّبْحَ كَالْغَسَقِ
 أَبْوَابُ رِزْقٍ عَلَيْهَا اللَّوْمُ كَالْغَلَقِ
 مِثْلَ اكْتِسَاءِ غُصُونِ أَلْبَانٍ بِالْوَرَقِ
 وَمَنْ أَيْادِيهِ كَالْأَطْوَاقِ فِي عُنْقِي
 كَانَ النَّدَى بَعْدَهُمْ فِي آخِرِ الرَّمَقِ
 لِأَصْبَحَ الدُّرُّ مَطْرُوحًا عَلَى الطَّرْقِ
 لَمْ يَنْجُ فِي الْأَرْضِ مَخْلُوقٌ مِنَ الْغَرَقِ
 تَحْتَ الْعَجَاجِ وَكَمْ فَرَّقَتْ مِنْ فِرَقِ
 صُبْحًا عَلَيْهِ دُمُ الْأَبْطَالِ كَالشَّفَقِ
 لَهُمْ بَوَارِقُ ذَاكَ الْعَارِضِ الْغَدِقِ
 لَمَّا وَلِيَتْ وَبَاتَ الْجَوْرُ فِي نَفَقِ
 عَزْمًا إِذَا ضَاقَ حُبُّ الْأَرْضِ لَمْ يَضِيقِ
 حَدُّ الْحُسَامِ إِذَا مَا بَاتَ مُعْتَنِقِي
 سَمْعِي وَأَظْلَمُ مِنْ مَرَاهٍ فِي حَدَقِي

وقال صفي الدين الحلي في مدح الملك الصالح إسماعيل بن محمد (٠٠٠ - ٦٤٨ هـ / ١٢٥١ م) من ملوك الدولة الأيوبية . قيل في وصفه : كان ملكاً شهماً مُحسناً لحاشيته :

وَلَا يُنَالُ الْعُلَى إِلَّا فَتَى شَرُفَتْ
كَالصَّالِحِ الْمَلِكِ الْمَرْهُوبِ سَطَوْتُهُ
يَكَادُ يَقْرَأُ مِنْ عُنْوَانِ هِمَّتِهِ
كَالْبَحْرِ وَالْدَّهْرِ فِي يَوْمِي نَدَى وَرَدَى
مَا جَادَ لِلنَّاسِ إِلَّا قَبْلَمَا سَأَلُوا
إِذَا غَدَا الْغُصْنُ غُضًّا مِنْ مَنَابِتِهِ
لَمْ يَرْحَلُوا عَنْ حِمَى أَرْضٍ إِذَا نَزَلُوا
تَبْقَى صَنَائِعُهُمْ فِي الْأَرْضِ بَعْدَهُمْ
يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْبَانِي لِدَوْلَتِهِ
كَانَتْ عِدَاكَ لَهَا دَسْتُ فَقَدْ صَدَعْتَ
ظَنُّوا تَأْنِيكَ عَنْ عَجْزٍ وَمَا عَلِمُوا
أَحْسَنْتُمْ فَبَغُوا جَهْلًا وَمَا اعْتَرَفُوا
خِلَالُهُ فَاطَاعَ الدَّهْرُ مَا أَمَرَا
فَلَوْ تَوَعَّدَ قَلْبَ الدَّهْرِ لَانْفَطَرَا^(١)
مَا فِي صَحَائِفِ ظَهْرِ الْغَيْبِ قَدْ سَطَرَا
وَاللَّيْثِ وَالْغَيْثِ فِي يَوْمِي وَغَى وَقَرَى^(٢)
وَلَا عَفَا قَطُّ إِلَّا بَعْدَ مَا قَدِرَا
مَنْ شَاءَ فَلْيَجْنِ مِنْ أَفْتَانِهِ الثَّمَرَا^(٣)
إِلَّا وَأَبْقُوا بِهَا مِنْ جُودِهِمْ أَثَرَا
وَالْغَيْثُ إِنْ سَارَ أَبْقَى بَعْدَهُ الزَّهَرَا^(٤)
ذَكَرًا طَوَى ذِكْرَ أَهْلِ الْأَرْضِ وَأَنْتَشَرَا
حَصَاةُ جِدِّكَ ذَاكَ الدَّسْتُ فَانْكَسَرَا
أَنَّ التَّأْنِيَّ فِيهِمْ يُعْقِبُ الظَّفَرَا
لَكُمْ وَمَنْ كَفَرَ النُّعْمَى فَقَدْ كَفَرَا

★ ★ ★

(١) توعّد: تهدّد - انفطر: انشطر.

(٢) الندى: العطاء - الردى: الموت - الليث: الأسد - الغيث: المطر - الوغى: الحرب. القرى: إطعام الضيف.

(٣) الغض: الطري والناصر.

(٤) الصنائع: الأعمال الحميدة.

ابن عمّار في مدح المعتضد بالله

الشاعر هو محمد بن عمار المهري الأندلسي (٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م - ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م) وزير شاعر هجاء يُلقَّب بذي الوزارتين. جعله المعتمد بن عباد (صاحب عرب الأندلس) وزيراً له، ومشيراً وجليساً، ثم خلع عليه خاتم الملك، ولقّبه بالإمارة، واستنابه على « مرسية » فعصى بها، وتملكها.

والممدوح هو عباد بن محمد بن إسماعيل (٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م - ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م) صاحب إشبيلية في عهد ملوك الطوائف. كان شجاعاً حازماً، ينعت بأسد الملوك. طمع إلى الاستيلاء على جزيرة الأندلس، فدان له أكثر ملوكها، واستولى على غربها. كان يطرب للشعر، ويقوله.

ومن قصيدة لابن عمّار قالها في مدحه نقتطف الأبيات التالية:

أَدِرِ الْمُدَامَةَ فَالْنَّسِيمُ قَدْ أَنْبَرَى	وَالنَّجْمُ قَدْ صَرَفَ الْعَيْنَانَ عَنِ السَّرَى
وَالصَّبْحُ قَدْ أَهْدَى لَنَا كَافُورَهُ	لَمَّا اسْتَرَدَّ اللَّيْلُ مِنَّا الْعَنْبَرَا
وَالرَّوْضُ كَالْحَسَنَاءِ كَسَاهُ زَهْرُهُ	وَشَيْئاً وَقَلْدَهُ نَدَاهُ جَوْهَرَا
رَوْضٌ كَأَنَّ النَّهْرَ فِيهِ مِعْصَمٌ	صَافٍ أَطْلَعَ عَلَى رِذَاءٍ أَخْضَرَا
وَتَهْزُهُ رِيحُ الصَّبَا فَتَخَالُهُ	سَيْفَ ابْنِ عَبَّادٍ يَبْدُدُ عَسْكَرَا

مَلِكٌ إِذَا أَرَدَحَمَ الْمُلُوكُ بِمَوْرِدٍ
 أُنْدَى عَلَى الْأَكْبَادِ مِنْ قَطْرِ النَّدَى
 قَدَّاحُ زَنْدِ الْمَجْدِ لَا يَنْفَكُ عَنْ
 لَا خَلْقَ أَقْرَأُ مِنْ شِفَارِ حُسَامِهِ
 أَيْقَنْتُ أَنِّي مِنْ ذَرَاهُ بِجَنَّةٍ
 وَعَلِمْتُ حَقًّا أَنَّ رَبِّي مُخَصَّبٌ
 مَلِكٌ يَرُوقُكَ خَلْقُهُ أَوْ خَلْقُهُ
 أَقْسَمْتُ بِاسْمِ الْفَضْلِ حَتَّى شِمْتُهُ
 وَجَهِلْتُ مَعْنَى الْجُودِ حَتَّى زُرْتُهُ
 هَصَرْتُ يَدِي غُصْنَ النَّدَى مِنْ كَفِّهِ
 حَسْبِي عَلَى الصَّنْعِ الَّذِي أَوْلَاهُ أَنْ
 السَّيْفُ أَفْصَحُ مِنْ زِيَادِ خُطْبَةٍ
 مَا زِلْتُ تُغْنِي مَنْ عَنَّا لَكَ رَاجِيًا
 حَتَّى حَلَلْتَ مِنَ الرَّئِيسَةِ مَحْجِرًا
 فَلَيْنُ وَجَدْتُ نَسِيمَ حَمْدِي عَاطِرًا

وَنَحَاهُ لَا يَرِدُونَ حَتَّى يَصُدُّرَا
 وَالَّذِي فِي الْأَجْفَانِ مِنْ سِنَةِ الْكَرَى
 نَارِ الْوَعَى إِلَّا إِلَى نَارِ الْقِرَى
 إِنْ كُنْتَ شَبَّهْتَ الْمَوَاكِبَ أَسْطُرَا
 لَمَّا سَقَانِي مِنْ نَدَاهُ الْكَوْثَرَا
 لَمَّا سَأَلْتُ بِهِ الْغَمَامَ الْمُطِيرَا
 كَالرَّوْضِ يَحْسُنُ مَنَظَرًا أَوْ مَخْبَرَا
 فَرَأَيْتُهُ فِي بُرْدَتَيْهِ مُصَوَّرَا
 فَقَرَأْتُهُ فِي رَاحَتَيْهِ مُفَسَّرَا
 وَجَنَّتْ بِهِ رَوْضَ السَّرُورِ مُنَوَّرَا
 أَسْعَى بِجِدٍّ أَوْ أُمُوتَ فَأَعْذَرَا
 فِي الْحَرْبِ إِنْ كَانَتْ يَمِينُكَ مُنْبَرَا
 نَيْلًا وَتُفْنِي مَنْ عَنَّا وَتَجَبَّرَا
 رَحْبًا وَضَمَّتْ مِنْكَ طَرْفًا أَحْوَرَا
 فَلَقَدْ وَجَدْتُ نَسِيمَ بَرِّكَ أَعْطَرَا

الفصل الثاني

مديح الأمراء والوزراء والوجهاء

لقد اتصل الشعراء بالأمراء والوزراء والأشراف أكثر من اتصالهم بالملوك والخلفاء، ذلك أنه لم يكن متيسراً للشعراء أن يدخلوا إلى أبواب الملوك قبل أن يحظوا بلقاء من هم أدنى مرتبة منهم. فقد مدح النابغة الذبياني في أول الأمر قائد الحارث الغساني كما مدح زهير هرم بن سنان والحارث بن عوف حين أصلحا بين قبيلتي عبس وذبيان في حرب داحس والغبراء. فهو يقول في أحد ممدوحيه:

تراه، إذا ما جئتُه، متهللاً كأنك تُعطيه الذي أنت سائلُه

وهذه الصورة أعجبت المتأخرين فكررّوها في شعرهم بعده، يصفون المتفضل وهو يجود بماله قرير النفس، على وجهه بشاشة كأنه يتقبل الهدية ولا يعطيها.

أما الأعشى فقد مدح كثيراً وكان أول من سأل بشعره، فإذا ممدوحه قويّ معطاء يهب المال حين يشتدّ القحط في زمن الشتاء وتهزل المروضات من الأنعام. ثم يأتي عصر بني أمية. ويكثر فيه العمّال والولاة والوجهاء فيتوزع الشعراء عليهم مادحين. وقد مدح الفرزدق كثيراً من هؤلاء أمثال الحجاج بن يوسف وخالد بن عبدالله القسريّ، فأثنى على شجاعتهم وكرمهم وأصاله نسبهم وشكرهم على نعمتهم ودعاهم إلى انقاذه ممّا هو فيه من ضنك وحاجة إلى المال. ثم تبعه جرير فمدح القوادم والأمراء وتكسّب بمديحه وكان الحجاج أبرز ممدوحيه.

ثم جاء العصر العباسي فتوزعت المناصب وكثرت الإمارات والوزارات، فانصرف الشعراء إلى هؤلاء الوجهاء والسادة يمدحون طالبين قضاء الحاجة وبلوغ الأرب. فبشّار حين مدح وزير المهديّ اعترف له بأنّ انتظاره لثوابه قد طال. واضطرّ الشعراء إلى أن يرفعوا الوزراء والوجهاء والأمراء إلى مرتبة الخلفاء والملوك وإلى أن يسبغوا عليهم أثواباً فضفاضة، حتّى اختلط على الناقد التفريق بين ما قيل في الخلفاء وغير الخلفاء، لتقارب الصور والصيغ والأوصاف. وقد أصبح المديح حرفة ومهنة يبذل صاحبها ماء وجهه في سبيل المال. وغدا الأعزّاء من الشعراء يأنفون من نظم الشعر ممّا دفع بأبي فراس الحمداني إلى نفي صفة الشاعر عن نفسه حين قال:

نَطَقْتُ بِفَضْلِي وَامْتَدَحْتُ عَشِيرَتِي فَمَا أَنَا مَدَّاحٌ وَلَا أَنَا شَاعِرٌ
لقد أسقط المديح الشعر عن عرشه وأسقط معه قائله بعد أن كان للشاعر المقام الرفيع حيث كانت القبائل تهنّئ بعضها بعضاً بولادة الشاعر وتقوم وتقعّد لقوله، وتفرش الولاثم لقدمه وتقيم الأفراح لانتقاله ويحلّ من الملوك محلّ النديم والصديق.

ثم جاء أبو تمام فقدّس البطولة في أروع صورها على الطريقة التقليدية، فأجاد وابتكر حتّى ليصحّ القول إنّ مدائحه لو انتظمت في كتاب واحد لجمعت في وصف المفاخر والأمجاد ملحمة تاريخيّة من أروع ما كتب في الشعر الملحمي. قال في ممدوحه وقد أشرك الناس معه في مديحه:

كَرِيمٌ مَتَى أَمْدَحُهُ، أَمْدَحُهُ وَالْوَرَى مَعِي، وَمَتَى مَا لَمُّهُ، لَمُّهُ وَحَدِي
أو يصف ممدوحه قائلاً:

إِقْدَامُ «عَمْرُو»، فِي سَمَاحَةِ «حَاتِمٍ» فِي حِلْمِ «أَحْنَفَ»، فِي ذِكَا «إِيَّاسٍ»^(١)

(١) هو عمرو بن معد يكرب، وإيَّاس هو ابن معاوية، كان قاضيًا بالبصرة.

ثمّ جاء البحتري فاقتفى آثار أبي تمام وجعل ممدوحيه مشاعل تضيء في الكرم فتطفئ الكواكب، وسيوفاً مشهورة على الأعداء، وربيعاً من العطر والزهر على الدنيا. ومثله ابن الرومي الذي غالى وأسرف في القول حتّى جعلنا نتساءل: هل نؤمن بما يقوله هؤلاء الشعراء؟ إلى أن جاء المتنبي فبلغ بهذه المغالاة درجة جعلنا نصدّق معها أن هؤلاء الممدوحين كانوا دائماً المنتصرين، يفرّ الأعداء أمامهم مولّين الأدبار ذلاً ورهبة، مما جعل المستشرقين يتساءلون إذا كان هؤلاء الشعراء يجهلون أمر الحروب أو أنّهم لم يشهدوها. وقد انتقلت تلك العدوى إلى القرن العشرين حتّى رأينا أحمد شوقي يردّد: «وما الجيش إلا ربّة حين يُنسب». فسار هو نفسه على خطّة هؤلاء، ولم يخرج عن تشبيهات القدماء في وصفه الوزراء والقوّاد. وليس عجيباً أن يمدح شوقي أبطال الترك من أمثال مصطفى كمال، لأنّ الشاعر تهزّه البطولة أنّى كانت: فمدح القائد نابوليون حين وقف على قبره بباريس، ومدح سعد زغلول سياسياً وزعيماً. أمّا حافظ إبراهيم واسماعيل صبري فلم يختلفا كثيراً عن نهج استاذهما شوقي في مديح الوجهاء والوزراء على طريقة الشعر في عصر بني العباس.

الفرزدق في مدح زين العابدين

هو همام بن غالب بن صعصعة (٠٠٠ - ١١٠ هـ / ٧٢٨ م) شاعر من النبلاء ، من أهل البصرة ، عظيم الأثر في اللغة ، كان يقال : لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب ، ولولا شعره لذهب نصف أخبار الناس ، يشبه بزهير بن أبي سلمى .

والممدوح هو عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب (٣٨ هـ / ٦٥٨ م - ٩٤ هـ / ٧١٢ م) رابع الأئمة الاثني عشر عند الإمامية ، وأحد من كان يُضرب بهم المثل في الحلم والورع . قيل : كان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين معاشهم وماكلهم ، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ما كانوا يؤتون به ليلاً إلى منازلهم .

وروي في مناسبة هذه القصيدة أن هشام بن عبد الملك حجّ في خلافة أبيه ، فطاف بالبيت يريد استلام الحجر الأسود ، فلم يستطع لشدة ازدحام الناس ، فتَنَحَّى جانباً . في هذا الوقت أقبل زين العابدين (علي بن الحسين بن أبي طالب) فطاف في البيت ، فأفسح له الناس في المجال حتى استلم الحجر . فسأل أحد أهل الشام هشاماً : « من هذا الذي يحترمه الناس هذا الاحترام ؟ » فأجاب هشام ، إمّا تَجاهُلاً ، وإمّا خوفاً من أن يقوم عليه أهل الشام : « لا أعرفه » . فسمعه الفرزدق فأنشد :

هذا الذي تَعْرِفُ البطحاء وَطَّائَهُ
 هذا أَبْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلَّهُمْ
 هذا أَبْنُ « فاطمة » إِنْ كُنْتَ جَاهِلَهُ
 وَلَيْسَ قَوْلُكَ: مَنْ هَذَا؟ بِضَائِرِهِ
 كَلْتَا يَدَيْهِ غِيَاثٌ عَمَّ نَفْعُهُمَا
 سَهْلُ الْخَلِيقَةِ لَا تُخْشَى بَوَادِرُهُ
 حَمَالُ أَثْقَالِ أَقْوَامٍ إِذَا أَفْتَدَحُوا
 مَا قَالَ: « لَا » قَطُّ إِلَّا فِي تَشْهَدِهِ
 عَمَّ الْبَرِّيَّةَ بِالْإِحْسَانِ فَانْقَشَعَتْ
 إِذَا رَأَتْهُ قُرَيْشٌ قَالَ قَائِلُهَا:
 يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ
 والبيتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ^(١)
 هذا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ^(٢)
 بِجَدِّهِ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ قَدْ خَتَمُوا^(٣)
 الْعُرْبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرْتَ وَالْعَجَمُ^(٤)
 تُسْتَوَكِّفَانِ وَلَا يَعْرُوهُمَا عَدَمُ^(٥)
 يَزِينُهُ أَثْنَانِ: حُسْنُ الْخُلُقِ وَالشَّيْمُ^(٦)
 حُلُوُ الشَّمَائِلِ تَحْلُو عِنْدَهُ نَعَمُ^(٧)
 لَوْلَا التَّشْهَدُ كَانَتْ لَاءَهُ نَعَمُ^(٨)
 عَنْهَا الْغِيَاهِبُ وَالْإِمْلَاقُ وَالْعَدَمُ^(٩)
 « إِلَى مَكَارِمٍ هَذَا يَنْتَهِي الْكَرَمُ »^(١٠)
 فَمَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ^(١١)

- (١) البطحاء: أرض منبسطة تقوم « مكة » عليها. البيت: الكعبة. الحل: الأرض الواقعة وراء « مكة » الحرم: « مكة » وما يحيط بها.
 (٢) العلم: الجبل أو الراية.
 (٣) فاطمة: ابنة الرسول (ﷺ) وزوج علي بن أبي طالب، وجدته « زين العابدين » لأبيه. جدته: الرسول (ﷺ) وهو جد أبيه لأمه.
 (٤) بضائره: بمضرب به، أو بمنقوص من قيمته.
 (٥) غياث: ما يساعد به المحتاج، عم: شمل. تستوكفان: تستقطان، يطلب سيلانها. يعروهما: يصيبها.
 (٦) الخليفة: الطبع. بوادره: ج بادرة وهي ما يظهر من الإنسان ساعة الغضب من خطأ أو نحوه.
 (٧) افتدحوا: صعب عليهم الأمر. الشمائيل: ج شميلة وهي الطبع.
 (٨) التشهد: قول « لا إله إلا الله ».
 (٩) البرية: الخلق. الغياهب: ج غيب وهو الظلمة. الإملاق: الفقر.
 (١٠) هذا: كناية عن « زين العابدين ».
 (١١) يغضي: يميل طرفه أو نظره.

اللَّهُ شَرَّفَهُ قِدَمًا وَعَظَّمَهُ
 أَيَّ الْخَلَائِقِ لَيْسَتْ فِي رِقَابِهِمْ
 مَنْ يَشْكُرِ اللَّهَ يَشْكُرْ أَوْلَوِيَّةَ ذَا
 يُنْمَى إِلَى ذُرْوَةِ الدِّينِ الَّتِي قَصَرَتْ
 مَنْ جَدُّهُ دَانَ فَضْلُ الْأَنْبِيَاءِ لَهُ
 مُشْتَقَّةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ نَبْعَتُهُ
 يَنْشَقُّ ثَوْبُ الدُّجَى عَنْ نُورِ غُرَّتِهِ
 مِنْ مَعْشَرِ حُبِّهِمْ دِينَ وَبُغْضِهِمْ
 مُقَدَّمٌ بَعْدَ ذِكْرِ اللَّهِ ذِكْرُهُمْ
 إِنْ عُدَّ أَهْلُ التَّقَى كَانُوا أَئِمَّتَهُمْ
 هُمْ الْغِيُوثُ إِذَا مَا أَزَمَتْ أَزَمَتْ
 لَا يُنْقِصُ الْعُسْرُ بَسْطًا مِنْ أَكْفِهِمْ
 يُسْتَدْفَعُ الشَّرُّ وَالْبَلَوَى بِحُبِّهِمْ

جَرَى بِذَاكَ لَهُ فِي لَوْحِهِ الْقَلَمُ^(١)
 لأَوَّلِيَّةِ هَذَا أَوْ لَهُ نِعَمُ
 فَالَّذِينَ مِنْ بَيْتِ هَذَا نَالَهُ الْأَمَمُ
 عَنْهَا الْأَكْفُ وَعَنْ إِذْرَاكِهَا الْقَدَمُ^(٢)
 وَفَضْلُ أُمِّيهِ دَانَتْ لَهُ الْأَمَمُ
 طَابَتْ مَغَارِسُهُ وَالْخَيْمُ وَالشَّيْمُ^(٣)
 كَالشَّمْسِ تَنْجَابُ عَنْ إِشْرَاقِهَا الظَّلَمُ^(٤)
 كُفْرٌ وَقُرْبُهُمْ مَنْجَى وَمُعْتَصَمُ^(٥)
 فِي كُلِّ بَدْءٍ وَمَخْتُومٌ بِهِ الْكَلِمُ^(٦)
 أَوْ قِيلَ: مَنْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ؟ قِيلَ: هُمْ^(٧)
 وَالْأَسَدُ، أَسَدُ الشَّرَى وَالْبَاسُ مُحْتَدِمُ^(٨)
 سَيَّانٍ ذَلِكَ: إِنْ أَثَرُوا وَإِنْ عَدِمُوا^(٩)
 وَيُسْتَرْبُ بِهِ الْإِحْسَانُ وَالنِّعَمُ^(١٠)

(١) في لوحه القلم: أي ما كُتِبَ له.

(٢) ينمى: ينتسب. قصرت: عجزت.

(٣) النبعة: نوع من الشجر الصلب، وهنا كناية عن نسبته. الخيم: الطبيعة.

(٤) الدجى: الظلام. غرته: وجهه. تنجاب: تزول.

(٥) منجى: خلاص. معتصم: ملجأ للاحتماء.

(٦) الكلم: الكلام.

(٧) أئمتهم: ج «إمام»، وهو الذي يقتدي به الناس.

(٨) الغيوث: ج «غيث» وهو المطر. أزمّت: اشتدت. الشرى: موضع تكثر فيه الأسود.

(٩) العسر: الضيق. بسطًا: سخاءً وكرمًا. سيّان: مثنى «سيّ»، وهي المثل أو الشبه. عدموا: افتقروا.

(١٠) يسترب: يستزاد.

المتنبّي في مدح سيف الدولة الحمدانيّ

هو شاعر عَصْرِهِ، بل شاعر العرب جميعًا على مَرَّ العصور، أحمد بن الحسين بن الحسن (٩١٥ م / ٣٠٣ هـ - ٩٦٥ م / ٣٥٤ هـ) قَضَى حياته متنقلاً من أمير إلى آخر، يمدح هذا ويهجو ذاك، لكن أكثر إقامته كانت في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب. اشتهر بالشعر الحكمي، والمدح والهجاء.

أمّا الممدوح فهو علي بن عبدالله بن حمدان التغلبي (٣٠٣ هـ / ٩١٥ م - ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م)، أمير حلب. أخباره ووقائعه مع الروم كثيرة، وكان كثير العطايا، مقرباً لأهل الأدب، يقول الشعر الجيد الرقيق. قيل: لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ العلم ونجوم الدهر. والقصيدة التالية قالها المتنبّي في مدحه عندما انتصر على الدّستق في بلدة الحدث.

على قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ	وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ
وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا	وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعَظَائِمُ
يُكَلِّفُ سَيْفُ الدَّوْلَةِ الْجَيْشَ هَمَّهُ	وَقَدْ عَجَزَتْ عَنْهُ الْجُيُوشُ الْخَضَارِمُ ^(١)

(١) الخضارم: الكثيرة العدد.

وَيَطْلُبُ عِنْدَ النَّاسِ مَا عِنْدَ نَفْسِهِ
هَلِ الْحَدَثُ الْحَمْرَاءُ تَعْرِفُ لَوْنَهَا
سَقَتَهَا الْغَمَامُ الْغُرَّ قَبْلَ نُزُولِهِ
بَنَاهَا فَأَعْلَى وَالْقَنَا يَقْرَعُ الْقَنَا
وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجُنُونِ فَأَصْبَحَتْ
طَرِيدَةً ذَهْرٍ سَاقَهَا فَرَدَدَتْهَا
تُفِيتُ اللَّيَالِي كُلَّ شَيْءٍ أَخَذَتْهُ
إِذَا كَانَ مَا تَنْوِيهِ فَعَلًا مُضَارَعًا
وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لَوَاقِفِ
تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كَلَمَى هَزِيمَةً
تَجَاوَزْتَ مِقْدَارَ الشَّجَاعَةِ وَالنُّهَى
ضَمَمْتَ جَنَاحِيَهُمْ عَلَى الْقَلْبِ ضَمَّةً
وَذَلِكَ مَا لَا تَدْعِيهِ الضَّرَاغِمُ^(١)
وَتَعْلَمُ أَيُّ السَّاقِيَيْنِ الْغَمَائِمُ^(٢)
فَلَمَّا دَنَا مِنْهَا سَقَتَهَا الْجَمَاجِمُ^(٣)
وَمَوْجُ الْمَنَايَا حَوَّلَهَا مُتَلَاطِمُ
وَمِنْ جُثِّ الْقَتْلَى عَلَيْهَا تَمَائِمُ^(٤)
عَلَى الدِّينِ بِالْخَطِيِّ وَالذَّهْرُ رَاغِمُ^(٥)
وَهُنَّ لِمَا يَأْخُذْنَ مِنْكَ غَوَارِمُ^(٦)
مَضَى قَبْلَ أَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ الْجَوَازِمُ
كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمُ^(٧)
وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَتَغْرُكَ بَاسِمُ^(٨)
إِلَى قَوْلِ قَوْمٍ أَنْتَ بِالْغَيْبِ عَالِمُ^(٩)
تَمُوتُ الْخَوَافِي تَحْتَهَا وَالْقَوَادِمُ^(١٠)

-
- (١) الضراغم: الآساد.
(٢) الحدث: اسم القلعة التي بناها سيف الدولة، ووصفها «بالحمراء» لاصطبائها بدماء الروم.
(٣) الغمام: ج «غمامة» وهي السحابة. الغر: البيض.
(٤) التمايم: ج «تميمة» وهي خرزة أو نحوها تعلق في العنق دفعًا للشر.
(٥) الخطي: الرمح راغم: ذليل.
(٦) تفيت الليالي: تجبر على ترك. غوارم: أي ملزمة بأداء الغرامة.
(٧) الردى: الموت، الهلاك.
(٨) كلمى: ج «كليم»، أي جريح. وضاح: مشرق.
(٩) النهى: العقل.
(١٠) الجناحان هنا ميمنة الجيش وميسرته. الخوافي: ريش يكون تحت جناح الطائر. القوادم: عشر ريشات في مقدمة الجناح.

بِضَرْبِ أَتَى الْهَامَاتِ وَالنَّصْرُ غَائِبٌ
حَقَرَتِ الرُّدَيْنِيَّاتِ حَتَّى طَرَحَتْهَا
وَمَنْ طَلَبَ الْفَتْحَ الْجَلِيلَ فَإِنَّمَا
نَثَرْتَهُمْ فَوْقَ الْأَحْيَدِ كُلِّهِ
تَدُوسُ بِكَ الْخَيْلُ الْوُكُورَ عَلَى الذَّرَى
تَظُنُّ فِرَاحُ الْفُتُخِ أَنَّكَ زُرْتَهَا
إِذَا زَلَقْتَ مَشْيَتَهَا بِبَطُونِهَا
لَكَ الْحَمْدُ فِي الدَّرِّ الَّذِي لِي لَفْظُهُ
أَلَا أَيُّهَا السَّيْفُ الَّذِي لَيْسَ مُغْمَدًا
هَنِيئًا لِضَرْبِ الْهَامِ وَالْمَجْدِ وَالْعُلَى
وَلِمَ لَا يَقِي الرَّحْمَنُ حَدَّيْكَ مَا وَقَى

وَصَارَ إِلَى اللَّبَّاتِ وَالنَّصْرُ قَادِمٌ^(١)
وَحَتَّى كَانَ السَّيْفُ لِلرَّمْحِ شَاتِمٌ^(٢)
مَفَاتِيحُهُ الْبَيْضُ الْخِفَافُ الصَّوَارِمُ^(٣)
كَمَا نُثِرَتْ فَوْقَ الْعُرُوسِ الدَّرَاهِمُ^(٤)
وَقَدْ كَثُرَتْ حَوْلَ الْوُكُورِ الْمَطَاعِمُ^(٥)
بَأَمَاتِهَا وَهِيَ الْعِتَاقُ الصَّلَادِمُ^(٦)
كَمَا تَتَمَشَّى فِي الصَّعِيدِ الْأَرَاقِمُ^(٧)
فَإِنَّكَ مُعْطِيهِ وَإِنِّي نَاطِمٌ^(٨)
وَلَا فِيهِ مُرْتَابٌ وَلَا مِنْهُ عَاصِمٌ
وَرَاجِيكَ وَالْإِسْلَامَ إِنَّكَ سَالِمٌ^(٩)
وَتَفْلِيْقُهُ هَامَ الْعِدَى بِكَ دَائِمٌ^(١٠)

★ ★ ★

-
- (١) اللَّبَّات: الصدور.
(٢) الرُّدَيْنِيَّات: الرماح، وهي نسبة إلى «رُدَيْنَة» امرأة باليمامة اشتهرت وزوجها بصنع الرماح.
(٣) الْبَيْض: السيوف. الْخِفَاف: المرفهة. الصَّوَارِم: القواطع.
(٤) الْأَحْيَد: اسم جبل. نَثَرْتَهُمْ. فرقتهم، وزعتهم.
(٥) الْوُكُور: عش الطائر. الذرى: أعالي الشيء.
(٦) الْفُتُخ: ج «فتحاء» وهي أنثى العقاب. الْعِتَاق: كرام الخيل. الصلادم: الخيل الشديدة الصلبة.
(٧) زَلَقْتَ: زَلَّتْ بِهَا الْقَدَم. الصَّعِيد: وجه الأرض. الْأَرَاقِم: الْحَيَات.
(٨) الدَّر: كناية عن شعره.
(٩) الْهَام: ج «هامة» وهي أعلى الرأس. الْعُلَى: المراتب العالية.
(١٠) تَفْلِيْقُهُ: شَقَّه.

أبو تمام في مدح الحسن بن سهل

سبق التعريف بالشاعر، أمّا الممدوح فهو الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسيّ، (١٦٦ هـ / ٧٨٢ م - ٢٣٦ هـ / ٨٥١ م) أحد كبار القادة والقضاة في عصره. اشتهر بالذكاء المفرط، والأدب، والفصاحة، وحسن التوقيعات والكرم، للشعراء فيه أماديح. قال أبو تمام في مدحه:

خَلَائِقَ الْحَسَنِ اسْتَوْفِي الْبَقَاءَ فَقَدْ	أَصْبَحْتَ قُرَّةَ عَيْنِ الْمَجْدِ وَالْحَسَبِ
كَأَنَّمَا هُوَ مِنْ أَخْلَاقِهِ أَبَدًا	وَإِنْ ثَوَى وَحْدَهُ فِي جَحْفَلٍ لَجِبِ
صِيغَتْ لَهُ شِمَّةٌ غَرَاءٌ مِنْ ذَهَبٍ	لَكِنَّهَا أَهْلَكَ الْأَشْيَاءَ لِلذَّهَبِ
لَمَّا رَأَى أَدَبًا فِي غَيْرِ ذِي كَرَمٍ	قَدْ ضَاعَ أَوْ كَرَمًا فِي غَيْرِ ذِي أَدَبٍ
سَمَا إِلَى السُّورَةِ ^(١) الْعُلَيَاءُ فَاجْتَمَعَا	فِي فِعْلِهِ كَاجْتِمَاعِ النَّورِ وَالْعُشْبِ

★ ★ ★

(١) السورة: المنزلة.

ابن خفاجة الأندلسي في مدح الأمير أبي يحيى بن إبراهيم

الشاعر هو إبراهيم بن أبي الفتح بن عبدالله بن خفاجة الأندلسي (٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م - ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م) شاعر وكاتب من البلغاء . غلب على شعره وصف الرياض . ومناظر الطبيعة . والقصيدة التالية قالها في مدح الأمير أبي يحيى بن إبراهيم الأندلسي .

ضَافِي رِدَاءِ الْمَجْدِ طَمَّاحُ الْعُلَى	طَامِي عِبَابِ الْجُودِ رَحْبُ الدَّارِ
جَرَّارُ أَذْيَالِ الْمَعَالِي وَالْقَنَا	حَامِي الْحَقِيقَةِ وَالْحِمَى وَالْجَارِ
طَرِدُ الْقَنَاصِ بِكُلِّ قَيْدٍ طَرِيدَةٍ	زَجَلِ الْجَنَاحِ مُورِدِ الْأَظْفَارِ
مُلْتَفَّةٌ أَعْطَافُهُ بِحَيِيرَةٍ	مَكْحُولَةٌ أَجْفَانُهُ بِنُضَارِ
خَدَمَ الْقَضَاءِ مُرَادُهُ فَكَأَنَّمَا	مَلَكَتْ يَدَاهُ أَعْنَةُ الْأَقْسَادِ
وَعَنَى الزَّمَانُ لِأَمْرِهِ فَكَأَنَّمَا	أَصْنَعَى الزَّمَانُ بِهِ إِلَى أَمَارِ
وَجَلَا الْإِمَارَةُ فِي رَقِيقِ نَضَارَةٍ	جَلَّتِ الدَّجَى فِي حُلَّةِ الْأَنْوَارِ
فِي حَيْثُ وَشَحَّ لَبَّةٌ بِقِلَادَةٍ	مِنْهَا وَحَلَّى مِعْصَمًا بِسِوَارِ
جَذْلَانُ يَمَلَأُ مِنْحَةً وَبَشَاشَةً	أَيْدِي الْعُفَاةِ وَأَعْيُنَ الزُّوَارِ

أَرَجَ النَّدِيَّ بِذِكْرِهِ فَكَأَنَّهُ
بَطَلَ حَوَى الْفَلَكَ الْمُحِيطَ بِسَرِّهِ
بِئَمِّينِهِ يَوْمَ الْوَعَى وَشِمَالِهِ
وَالْخَيْلُ تَعْتُرُ فِي شَبَاشُوكِ الْقَنَا
وَالْبَيْضُ تَحْنِي فِي الطَّلَى فَكَأَنَّمَا
وَالنَّقْعُ يَكْسِرُ مِنْ سَنَا شَمْسِ الضُّحَى
صَحِبَ الْحُسَامَ النَّصْرُ صُحْبَةَ غِبْطَةِ
لَوْ أَنَّهُ أَوْحَى إِلَيْهِ بِنَظْرَةِ
وَقَضَى وَقَدْ مَلَكَتْهُ هِزَّةُ عِزَّةٍ
مُتَنَفِّسٌ عَنْ رَوْضَةِ مِعْطَارِ
وَأَسْتَلَّ صَارِمَهُ يَدُ الْمُقْدَارِ
مَا شَاءَ مِنْ نَارٍ وَمِنْ إِعْصَارِ
قِصْدًا وَتَسْبَحُ فِي الدَّمِ الْمَسْوَارِ
لُؤَيْتُ عُرَى مِنْهَا عَلَى أَزْرَارِ
فَكَأَنَّهُ صَدَأٌ عَلَى دِينَارِ
فِي كَفِّ صَوَالٍ بِهِ سَوَارِ
يَوْمًا لثَارَ وَلَمْ يَنْسَمِ عَنْ ثَارِ
تَحْتَ الْعَجَاجِ وَضِحْكَةُ اسْتِبْشَارِ

★ ★ ★

ابن الأزرق الأندلسي في مدح الرئيس أبي يحيى بن عاصم وتهنئته

هو محمد بن علي بن محمد الأصبحي الأندلسي (٠٠٠ - ٨٩٦ هـ /
١٤٩١ م) عالم اجتماعي سلك طريقة ابن خلدون ، من أهل غرناطة . له نظم
جيد ، قال في مدح الرئيس أبي يحيى بن عاصم الأندلسي :

يَا مُطْلِعَ الْأَنْوَارِ زَهْرًا يُجْتَنَى	وَمُشْعِشَ الصَّهْبَاءِ نَارًا تُلْمَسُ
بِكَ مَجْلِسُ الْأَنْسِ أَطْمَأَنَّ وَبَابِنِ عَا	صِمٍ أَطْمَأَنَّ مِنْ الرِّئَاسَةِ مَجْلِسُ
بَدْرٍ بِأَنْوَارِ الْهُدَى مُتَطَلِّعٌ	غَيْثٍ بِأَشْجَاتِ النَّدى مُتَبَجِّسُ
حَامِي فَلَمْ نَرْتَعْ لِحُطْبٍ يَغْتَرِي	وَوَفَى فَلَمْ تَحْفِلْ بِدَهْرِ يَبْخَسُ
شَيْمٌ مُهَذَّبَةٌ وَعِلْمٌ رَاسِخٌ	وَمَكَارِمٌ هُتُنٌ وَمَجْدٌ أَفْعَسُ
لَوْ كَانَ شَخْصًا ذِكْرُهُ لَبَدَا عَلَى	أَعْطَافِهِ مِنْ كُلِّ حَمْدٍ مَلْبَسُ
ذَاكُمْ أَبُو يَحْيَى بِهِ تُحْمَى الْعَلَى	وَبِهِ خِلَالُ الْفَخْرِ طُرًّا تُخْرَسُ
بَيْتٌ عَلَى عَمَدِ الْفَخَارِ مُطَنَّبٌ	مَجْدٌ عَلَى مَتْنِ السَّمَاءِ مُؤَسَّسُ
إِنَّا لَنَغْدُو هَيْمًا فَيُنِيلُنَا	رِيًّا وَيُوحِشُنَا النَّوَى فَيُؤَنِّسُ

لَمْ نَدْرِ قَبْلَ يَرَاعِهِ وَتَنَانِهِ
هُنَّ أَلْيَرَاغُ بِهَا يُؤَمَّنُ خَائِفٌ
مَهْمَا أَنْبَرَتْ فَهِيَ السَّهَامُ يُرَى لَهَا
يَشْفَى بِمَأْمَلِهِ الشَّكِيُّ الْمُعْتَرَى
قَدْ جَمَعَ الْأَضْدَادَ فِي حَرَكَاتِهِ
عَطْشَانُ ذُو رِيٍّ يَبِيسُ مُثْمِرٌ
لِلَّهِ مِنْ تِلْكَ أَلْيَرَاغِ جَوَادِبُ
رُضْنَا شِمَاسَ الْقَوْلِ فِي أَوْصَافِهَا
وَأَلْيَكْهََا حُلَّالًا تَشَابَهَ نَسْجُهَا
وَأَهْنَأُ بِعِيدِ بِاسْمِ مُتَهَلِّلِ
وَأَحْسِنُ لِيَوَاءَ الْفَخْرِ مَوْقُوفًا فَا (م) نَ الْحَمْدَ مَوْقُوفٌ عَلَيْكَ مُحَبَّسُ
أَنَّ السَّذَّوَابِلَ بِالْغَمَامِ تَبَجَّسُ
وَيُحَاطُ مَذْعُورٌ وَيُغْنَى مُفْلِسُ
وَقَعٌ لِأَغْرَاضِ أَلْبَيَانِ مُقَرِّطِسُ
يَحْيَا بِمَأْمَلِهِ الْحَمَامُ الْمُؤَيَّسُ
فَلِذَا أَطْرَادُ فَخَارِهِ لَا يُعْكَسُ
غَضْبَانُ ذُو صَفْحٍ فَصِيحٌ أَخْرَسُ
لِلْسَّخْرِ مِنْكَ كَأَنَّهَا الْمَغْنِيطِسُ
فَهِيَ أَلَّتِي رَاضَتْ لَنَا مَا يَشْمُسُ
مِثْلِي يُفَصِّلُهَا وَمِثْلُكَ يَلْبَسُ
وَأَفَاكَ يَجْهَرُ بِالسَّرُورِ وَيَهْمِسُ
نَ الْحَمْدَ مَوْقُوفٌ عَلَيْكَ مُحَبَّسُ

★ ★ ★

الشيخ ناصيف اليازجي في مدح أسعد باشا

هو ناصيف بن عبدالله بن ناصيف بن جنبلاط الشهير باليازجي (١٢١٤ هـ / ١٨٠٠ م - ١٢٨٧ هـ / ١٨٧١ م) ، شاعر من كبار الأدباء في عصره . أصله من حمص ، ومولده في كفرشما (لبنان) ، ووفاته ببيروت . من مؤلفاته « مجمع البحرين » ، و « العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب » . قال في مدح أسعد باشا قائد جيش البلاد العربيّة :

شَكَتُهُ الظُّبَى مِنْ كَثْرَةِ الضَّرْبِ فَاشْتَكَى	تَكَسَّرَهَا مِنْ ضَرْبِهِ فِي الْمَفَارِقِ
وَمَلَّتْ ظُهُورُ الْخَيْلِ مِنْهُ فَمَلَّهَا	إِذَا لَمْ تُخَضَّبْ مِنْ دَمٍ بِشَقَائِقِ
إِذَا قَامَ مِنْ تَحْتِ السَّرَادِقِ رَاكِبًا	أَقَامَ عَجَاجًا فَوْقَهُ كَالسَّرَادِقِ
وَلَمَّا رَأَيْنَا كَيْفَ تَنْقَضُ خَيْلُهُ	عَلِمْنَا بِهَا كَيْفَ أَنْقِضَ الصَّوَاعِقِ
إِذَا مَا رَمَى يَوْمًا بِهَنْ عَوَاصِمًا	ضَحِكْنَ عَلَى أَسْوَارِهَا وَالْخَنَادِقِ
تُفَارِقُ أَطْرَافَ الْبِلَادِ خِيُولُهُ	وَأَصْوَاتُهَا فِي قَلْبِهَا لَمْ تُفَارِقِ
يَطَّانَ الْحَصَى كَالْتُّرْبِ غَيْرَ عَوَائِرِ	وَمُلْسَ الصِّفَا كَالرَّمْلِ غَيْرَ زَوَاهِقِ
وَيَحْسَبْنَ وَحْشَ الْغَابِ آرَامَ رَامَةٍ	وَيَحْسَبْنَ غَابَ الْوَحْشِ زَهْرَ الْحَدَائِقِ
عَلَيْهَا أَسُودٌ تَتَّقِي عَارَ هَارِبٍ	وَلَا تَتَّقِي فِي الْكَرِّ وَقْبَةَ غَاسِقِ

رِمَاحُ بِأَيْدِيهَا رِمَاحٌ طَوِيلَةٌ
 يَنْضُ دَمًا مَا أَدَقَّ مِنْهَا فَإِنَّهُ
 إِذَا نَابَ خَطْبُ الدَّهْرِ فَادْعُ تَيْمُنًا
 عَزِيزٌ أَذَلَّ الدَّهْرَ وَهُوَ عَدُوٌّ
 كَرِيمٌ السَّجَايَا مِلْءُ قَلْبٍ مُؤَمِّلٍ
 لَهُ فِي عُيُوبِ النَّاسِ نِظْرَةٌ غَافِلٍ
 يُسَرُّ بِمَا يُعْطَى مَسْرَّةً آخِذٍ
 صَحِيحُ بَنَانٍ تَضْبِطُ الْمُلُوكَ دَهْرَهُ
 إِلَى دَارِهِ الرُّكْبَانُ تَهْوِي فَتَنْشِي
 لَهُ فِي رُؤُوسِ الْقَوْمِ تَيْجَانُ نِعْمَةٍ
 وَعَيْنٌ تُرَاعِي نَفْسَهُ قَبْلَ غَيْرِهِ
 خَتَمَتْ عَلَى نَظْمِ الْقَوَافِي فَفَضَّضَهُ
 تَضْيِيقُ بَحَارِ الشَّعْرِ عَنْهُ وَتَسْتَحْيِي
 إِلَيْكَ حَمَلْنَا طَيِّبَ الْكَلِمِ الَّذِي
 لَقَدْ فُقَّتْ أَهْلَ الْفَضْلِ فَالْقَوْمُ فَضْلُهُ
 إِذَا كُنْتَ بَدْعًا فِي الْكِرَامِ كَمَا نَرَى

تُمَزَّقُ شَمْلَ الْقَوْمِ فِي كُلِّ مَازِقٍ
 قَتِيلٌ بِإِثَارَاتِ الضُّلُوعِ السَّوَاحِقِ
 بِأَسْعَدِ خَلْقِ اللَّهِ دَعْوَةً وَائِثِقِ
 لِأَنَّ الْخَنَا فِي سُوقِهِ غَيْرُ نَافِقِ
 وَرَاحَةٍ مُسْتَجِدٍ وَمُقْلَةٍ رَامِقِ
 وَفِي غَامِضَاتِ السَّرِّ نِظْرَةٌ حَادِقِ
 فَيَشْكُرُ مِنَّا طَارِقًا شُكْرَ طَارِقِ
 وَلَا تَضْبِطُ الدِّينَارَ بِضَعِ دَقَائِقِ
 مُشَاةً لِيُوقِرَ أَلْمَالِ فَوْقَ الْأَيَانِقِ
 وَأَطَوَاقُ أَمْنٍ فِي نُحُورِ الْعَوَاتِقِ
 فَلَا يَتَوَلَّى عِرْضَهُ سَهْمٌ رَاشِقِ
 كَرِيمٌ عَلَيْهِ هَانَ فَتَحُ الْمَغَالِقِ
 بِبَحْرِ لَهَا فِي بَحْرِ كَفِّهِ غَارِقِ
 إِلَى اللَّهِ يُهْدَى دُونَ جُرْدِ السَّوَائِقِ
 وَمَنْ لِي بِوَصْفٍ مِثْلِ فَضْلِكَ فَائِقِ
 فَلَيْتَ لَكَ إِنِّي شَاعِرٌ غَيْرُ سَارِقِ

★ ★ ★

الشيخ إبراهيم اليازجي في مدح صبحي باشا

هو إبراهيم بن ناصيف بن عبدالله (١٢٦٣ هـ / ١٨٤٧ م - ١٣٢٤ هـ / ١٩٠٦ م) عالم باللغة والأدب. كان من الطراز الأول في كتاب عصره. كان رزقه من شقّ قلمه، فعاش فقيرًا، غنيّ القلب، أبيّ النفس. من مؤلفاته: «نجعة الرائد في المترادف والمتوارد»، وديوان شعر. قال في مدح صبحي باشا:

هَذَا وَزِيرُ الْمُلْكِ ذُو الشَّرَفِ الَّذِي	أَزْرَى الثَّرِيًّا وَالسَّمَاءَ الْأَعْزَلَا
أَمْضَى مِنْ آلْسَهْمِ الْمَذَلِّقِ نَظْرَةً	فِي كُلِّ مُعْظَمَةٍ وَأَفْتَكُ مَقْتَلَا
وَأَسَدٌ مَنْ عَرَكَ الْأُمُورَ تَصَرُّفًا	فِي حِينٍ لَا يَجِدُ اللَّيْبُ مَعُولَا
وَلِيَّ الْبِلَادِ فَكَانَ فِيهَا عَدْلُهُ	ظِلًّا وَكَانَ الْأَمْنُ فِيهَا مَنْهَلَا
أَبَدًا يُرَاعِيهَا بِطَرَفٍ سَاهِرٍ	حَلَفَ الْحِفَاظُ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَغْفَلَا
فَصَلُّ الْخِطَابِ إِذَا قَضَى وَإِذَا أَنْبَرَى	يَحْكِي بِهَمَّتِهِ الْقَضَاءَ الْمُنْزَلَا
وَإِذَا يَفُوهُ تَنَاثَرَتْ مِنْ لَفْظِهِ	دُرَرٌ تُقَلِّدُهَا الْمَعَاصِمُ وَالطُّلَى
تَهْوِي النَّفُوسُ عَلَيْهِ مِنَ الطَّافِهِ	فَتَرُدُّهَا عَنْهُ الْمَهَابَةُ وَالْعُلَى
حَاوَلْتُ أَنْ أَثْنِي عَلَيْكَ فَخَانَنِي	قَلَمٌ أَرَاهُ غَدَا بِكَفِّي مِغْزَلَا
فَرَأَيْتُ مَدْحَكَ لَا تَفِيهِ عِبَارَةٌ	وَرَأَيْتُ مَدْحَ الْأَكْثَرِينَ تَمَحَّلَا

وَعَذَلْتُ تَقْصِيرِي بِوَصْفِكَ عَاجِزًا وَعَلِمْتَهُ فَعَذَرْتَنِي مُتَفَضِّلًا
وَلَعَلَّ عَجْزِي فِي مَدِيحِكَ نَاطِقٌ عَنِّي بِأَفْصَحَ مِنْ ثَنَائِي وَأَطْوَلًا
وَالصُّبْحُ أَوْضَحُ مِنْ مَقَالَةٍ قَائِلٍ لَاحَ الصَّبَّاحُ إِذَا تَأَلَّقَ وَأُنْجَلَى

★ ★ ★

الشيخ خليل اليازجيّ في مدح الخديويّ توفيق

هو خليل بن ناصيف بن عبدالله بن ناصيف بن جنبلاط (١٢٧٣ هـ / ١٨٥٦ م - ١٣٠٦ هـ / ١٨٨٩ م). أديب لبناني له شعر. من مؤلفاته «نسمات الأوراق» نظمًا، و«الوسائل إلى إنشاء الرسائل».

والممدوح هو الخديوي محمد توفيق بن اسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي (١٢٦٩ هـ / ١٨٥٢ م - ١٣٠٩ هـ / ١٨٩٢ م). في أيامه أنشئ نظام الشورى، وأنشئت المحاكم الأهلية.

قَيَّدَتْ نَفْسَكَ بِالثَّبَاتِ شَجَاعَةً	إِنَّ الْمُقَيَّدَ نَفْسَهُ لَطَلِيْقُ
وَتَبَّتْ فَرْدًا فِي الْخُطُوبِ كَأَنَّمَا	لَكَ مِنْ فَرِيقِ النَّائِبَاتِ رَفِيقُ
فَتَهَلَّلْتَ مِصْرَ لَدَيْكَ كَأَنَّهَا	صَفْحُ الْمُحَيَّا مِنْكَ وَهُوَ طَلِيْقُ
وَالنَّيْلُ بَيْنَ يَدَيْكَ يَلْمَعُ وَجْهَهُ	مُبَسَّمًا وَلِكَفِّهِ تَصْفِيْقُ
فِي ضِفَّتَيْهِ لِلْأَخْضِرَارِ زَبَرْجَدُ	مِنْ خِصْبِهَا وَلَهُ الْعَقِيْقُ عَقِيْقُ
لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ التَّكَدُّرُ نَافِعًا	وَالنَّفْعُ مَا تَبْغِي لَكَانَ يَرُوقُ
نَيْلٌ يُلَاقِي مِنْكَ نَيْلًا آخِرًا	لِلْعَدْلِ لَيْسَ يَشُوبُهُ تَرْنِيْقُ
شَرِبْتَ بِهِ مِصْرَ بِظِلِّكَ أَكْوَسًا	طَرِبْتَ بِهَا فَكَأَنَّهِنَّ رَحِيْقُ

تَجْرِي لَدَى وُرَادِهَا وَكَأَنَّهُا
وَتَشِفُّ عَنْ أَنْوَارِ عَذْلِكَ دَائِمًا
وَلَكَ الْحِسَانُ مِنَ الْخَلَائِقِ دُونَهَا
وَذِكَاؤُ فَكْرِ ثَاقِبٍ مُتَوَقِّدٍ
وَيَكَادُ عِنْدَكَ لِلْبِدَاهَةِ وَالْحِجَى
فَرْعُ الْعَلِيِّ مُحَمَّدٍ وَكَذَا الْفُرُ
عِزُّ بَنَاهُ مِنَ الْقَدِيمِ فَإِنَّهُ
أَسْتَمُوهُ عَلَى الْعَلَى وَالْحَمْدِ مِنْ
بِالسَّعْدِ مَقْرُونٌ لَفَيْكُمُ الَّذِي
فَأَنْعَمَ فَدَاكَ الْمُبْغِضُوكَ بِرَغْمِهِمْ

مَاءُ الْحَيَاةِ لَدَيْهِمْ مَذْفُوقُ
فَلَهُمْ صَبُوحٌ لَا يَلِيهِ غُبُوقُ
مَا فِي الْعُقُودِ زَبَرْجَدٌ وَعَقِيقُ
تَجَلُّو ظَلَامَ الْخَطْبِ مِنْهُ بُرُوقُ
قَبْلَ التَّصَوُّرِ يُدْرِكُ التَّصَدِيقُ
عُ تَطِيبُ إِنْ طَابَتْ لَهُنَّ عُرُوقُ
بَيْتٌ تَحُجُّ لَهُ السُّعُودُ عَتِيقُ
قَدَمٍ فَذَلِكَ فِي الْفِخَارِ عَرِيقُ
أَبَدًا لَفَيْفُ عَدُوِّهِ مَفْرُوقُ
وَلَطَالَمَا طَوَّعَا فَدَاكَ صَدِيقُ

★ ★ ★

الفصل الثالث

مدح العلماء والأدباء

لقد تغنى الشعراء بشعرهم فصوّروه منتقلاً على كلّ لسان، جديرًا بالخلود
بينما شعر غيرهم هو صدى لشعرهم. وحين قالوا الشعر في غيرهم من الأدباء
والكتاب والشعراء والعلماء أجادوا في مدحهم، فأثنوا على قوّة البيان وروعة الأدب
وفضيلة العلم. فقد مدح بشّار واصل بن عطاء، وكان يلثغ بالرّاء، لكنّه في خطبه
يتخلّص منها ببراعته وقال فيه:

فقام مرتجلاً تغلي بدهائمه كمرجل القين لما حفّ باللهب
وجانب الرّاء لم يشعر بها أحدٌ قبل التصفّح والإغراق في الطلبِ

فشبه الشاعر ارتجاله في الكلام بغليان الرجل وقد حفّ به اللّهب، وذكر
تجنّبه الرّاء في كلامه مع براعة ودقّة في التعبير.

وقال أبو تمام يمدح محمد بن عبد الملك الهاشمي لحكمته وبلاغته:

لقمان صمتاً وحكمة فإذا قال لقطنا الياقوت من خطبته

وقال في مدح الشاعر والكاتب محمد بن عبد الملك الزيّات:

لكّ القلم الأعلى الذي شبّاته تُصابُ من الأمر الكلى والمفاصلُ
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت عليه شعابُ الفكر وهَيّ حوافلُ

أطاعته أطراف القنا وتقوّضت لنجواه تقويضَ الخيام الجحافلُ
فصوّر القلم قاطعًا كالسيف إذا أمسكت به أصابع الأديب يفعل في الأعداء
فعل الجيوش الجحافل .

والبحتري مدح هذا الوزير الكاتب نفسه وقال يصف أدبه :
وبديع كآته الزهر الضّا حِكُ في رونقِ الربيعِ الجديدِ
مشرق في جوانب السّمع ما يخد لِقُّهُ عَوْدُهُ على المستعيدِ

فاذا هو أدب شبيه بزهور الربيع لا يملّ السّامع منه بل يطلب الإعادة والمزيد
لما يتركه في النفس والأذن من آثار طيّبة .

أمّا ابن الرومي فقد مدح الكاتب عبيدالله وأشاد بقدرته على تركيب الألفاظ
حين قال فيه :

وأنت الذي يدعو الكلامَ بِقُدْرَةٍ فيأتيهِ وحشيُّ الكلامِ وآنسُهُ

وقال المتنبي في عليّ بن عامر الإنطاكي وكان ضليعًا في أصناف العلوم
والنجوم والأدب :

دعاني اليك العلم والحلم والحجا وهذا الكلامُ النّظمُ والنّائلُ النّشرُ

ومدح المتنبي الكاتب ابن العميد وجعله في حكمته كارسطو وفي بأسه
كالإسكندر وفي معرفته وحكمته كبطليموس .

أمّا الشريف الرضي فقد مدح الصاحب إسماعيل بن عبّاد فرأى قلمه أمضى من
السيوف العوالي :

لَكَ القلمُ الماضي الذي لو قَرَنْتَهُ بجَرِّي العوالي كان أجرى وأجودا

وزاد هذا اللون من المديح في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، فقد امتدح حافظ ابراهيم الإمام محمد عبده فالتفّ الناس حوله كأنه ابن الخطاب أو علي بن ابي طالب. ومدح شوقي كثيراً من العلماء والادباء وكان ينشد في كلّ مناسبة قصيدة على عادة أبناء الغرب الذين كانوا يقيمون الحفلات التكريمية يرسلون فيها الخطب في الشعر والنثر لمناسبة إقامة مشروع أو افتتاح مصرف أو تأسيس جامعة. وهذا اللون من أدب المناسبة جديد على الأدب العربي ، لكنّ شعراءنا خاضوا فيه وتسابقوا ، واعتلوا المنابر ، فصفقت لهم الأكفّ ، ونشرت الصحافة أقوالهم في كلّ قطر ، فحملتها الريح مع كلّ غبار .

أمين نخلة في مدح بشارة الخوري

هو الشاعر اللبناني الأديب أمين رشيد نخلة، صاحب مدرسة تركت طابعها في الشعر، والنثر، والخطابة، والقانون، جمع في أسلوبه رقة الجديد ولطافته إلى روعة القديم وجزالته، فجاء مجلّواً مصقولاً على كثير من العناية والتفنّن. من مؤلفاته «دفتري الغزل»، و«المفكرة الريفية».

والممدوح هو بشارة بن عبدالله الخوري البيروتي، أشهر شعراء لبنان في العصر الحديث. له ديوان «الهوى والشباب»، و«شعر الأخطل الصغير».

والقصيدة التالية قالها أمين نخلة في قصر الأونيسكو في بيروت في احتفال لتكريم الأخطل الصغير ومبايعته بإمارة الشعر بعد أن حملها أحمد شوقي سنة ١٩٢٧ م.

أيقولون: أخطلٌ، وصغيراً أنتَ في دولة القوافي أميرٌ
ولك التاجُ، والمطارفُ، والبُردُ وركنٌ مجلّلٌ، وسريرٌ^(١)
فاسحبِ الذيلَ ما تشاءُ، وجرّري، إنّ ملكَ البيانِ ملكٌ كبيراً
وضعَ العصرُ في يديكَ أماناتِ القوافي، والعبءُ حيثُ الجديرُ

(١) المطارف: جمع مطرف، وهو رداء من جريز. البرد: الثوب المخطّط. ركن مجلّل: جانب معظّم.

قد أبى الله في الفصاحة أن يغدو
فارفع الصوت، إنه صوت لبنان
مُخَوِّلٌ أنت في الفخار، مُعِمٌّ،
لم تغرّد فصاحة العُرب إلا
منا في العالمين أخيراً..
وردّد به، ونِعِمّ الجَهيّر^(١)
فلنا في العصور جاء أثير...^(٢)
كان منا المغرّد الشّحرور!

★ ★ ★

غزلٌ رقّ كالرّنين على الوجْدِ،
تسمعُ الدقّ فيه للقلب، بل تنظر
هُوَ زَادُ العُشّاق، أنسُ لياليهم
ومَبَانٍ من دقّة النّسج أثناء
ومعانٍ كأنّ مَدَهْنَةَ المسك
ولانت له القلوب الصّخور
دمعاً يجري، ودمعاً يفور..
وكأسٌ بين النّدامى تدور
حبير، لا أحرف، وسطور^(٣)
وقد حرّكت، وفاح العبير^(٤)

★ ★ ★

ذاك غيرُ الجزيلِ في الرّأي،
أُتري الحسنُ في الوجود تجلّى
رُبّ قولٍ له على الظّلّل الخُضرِ،
والحكمة، وهو المردّد، المأثور^(٥)
ليراه هذا اللسان البصير..
وقد حفّها صَبّا، وبكور^(٦)

(١) الجهير: العالي.

(٢) مخوّل، مُعِمّ: كريم الأخوال والأعمام. أثير: مشهور، معروف.

(٣) الأثناء: جمع ثني، وهو طيّ الثوب. حبير: برد موشى.

(٤) مدهنة: قارورة الدهن.

(٥) الجزيل: الكثير.

(٦) الظلل: جمع ظلال. الصّبّا: ريح خفيفة شرقية. بكور: أول مطر الربيع.

تخرج العينُ منه بالوهم، لا تَدْرِي
وخيالٍ كأنما غَمَرَ الدُّنْيَا
عَمَرَكَ اللهُ: هل رأيتَ كبيت
بين شطريه قد أُتِيحَ بياضٌ،
أروضٌ يهتزُّ، أم تصويرُ!
وما ضِيقٌ عنه سَطَرَ قصيرُ!
الشَّعْرُ كهفًا يأوي إليه الضَّميرُ^(١)
وانفساخٌ، فليُنزِلِ المعمورُ...

★ ★ ★

يا أخي الأبلج، الكريمَ على الودِّ
فكأنِّي أنا الذي هتفوا باسمي،
جمعتنا على الودادِ القسوافي،
لا، وحيثُك، ما أنا الحاسدُ
زهانِي بما زهاكَ السرورُ^(٢)
وعجَّ المنظومُ، والمنشورُ
والهوى الضَّخَمُ، والطلابُ الخطيرُ
الشَّانِيءُ أو طامع حداه الغرورُ^(٣)
الشَّيبُ، إخاءٌ لا يعتريه فتورُ^(٤)
إذا أمسَكَ المغنِّي القديرُ^(٥)
فعلى كلِّ شعرةٍ منه نورُ
أنا مُصْفِيكَ في الشباب، وفي
يا مُغْنِي الصَّبَا، ومن ذا يُغْنِيهِ،
جاءكَ الشَّيبُ بالأزاهرِ بيضًا،

★ ★ ★

(١) عمرك الله: تعبير يقال في الدعاء للآخر، والمعنى: أعطاك الله عمراً مديداً.

(٢) الأبلج: الجميل.

(٣) الشانئ: المبغض.

(٤) مصفيك: مخلص لك الود.

(٥) أمسك: امتنع عن الكلام، سكت.

الفصل الخامس

مديح الأوطان والبلدان

١ - مديح الأوطان

أحبّ الإنسان الأرض التي عاش فيها أكانت قاحلة أم خصبة، لأنّها رافقت عهداً من عهود حياته وعرفت شطراً من أيام عمره، فحنّ إليها وهو بعيد، واطمأنّ إليها وهو قريب، فانشد فيها شعره حنيناً وحرقة، وامتدح فيها الخير والبركة والنعم لا لأنّها خير وبركة ونعيم حقّاً بل لأنّها قطعة من عمره وفلذة من وجدانه. وقد اشتهر العرب في هذا المديح منذ الجاهلية وما زالوا حتّى اليوم.

يقول أحد شعراء العرب القدماء أحمد بن يحيى في بلاده التي أحبّها :

أحبّ بلاد الله ما بين منعجٍ إلى دار سلمى أن يصوبَ سحابها
بلادٌ بها حلّ الشباب تمائمي وأولُ أرضٍ مسّ جلدي ترابها

فتلك الأرض التي لامس جلده ترابها للمرة الأولى هي أحبّ أرضٍ إليه، وهي بالتالي وطنه وموضع حبّه وتقديسه، وهو بذلك لا يخرج عن التعريف البسيط الصحيح للوطن، لا تدخله فلسفة ولا منطق، ولا تحدّه علوم وقوانين، ولا تفرضه حقوق أو واجبات.

ثم نرى ابن الرومي يزيد على زميله تعريفاً بالوطن حين يقول :

بلدٌ صَحِبْتُ به الشَّيْبَةَ والصَّيْبَا ولَبِسْتُ ثوبَ العِشِ وهو جَدِيدُ

فاذا به يَصوِّرُ لنا الوطنَ تصويراً جميلاً يتمثِّله في ضميره حيث الشباب والعيش
النضير. وهذا التصوير يشبه الى حدٍّ بعيدٍ ما ورد على لسان الشاعر القائل:

تمتَّعَ من شميمِ عَرَارٍ نَجْدٍ فما بعد العشيَّةِ من عَرَارٍ

والعرار هو النبات الطيب يملأ أنف الشاعر ورثتيه وهو في نظره أفضل من
النخيل على ضفاف النيل أو الفرات. فالديار عزيزة لأنها موطن الأصدقاء وموضع
الذكريات، ولا يكون الحبّ للربوع إعجاباً بالحجر والشجر والماء والزهر، وإنما
يكون لما ينعكس منها في النفس وينسكب في الروح ويجري في العروق. هذا
هو الوطن الذي ينصرف عنه المرء وفي كبده تصدّع ويعود إليه وفي نفسه شفاء،
فكأنما النعيم هو القرب منه والجحيم هو البعد عنه.

وقد تبدّلت نظرة الشاعر العربي الى الوطن مع تقدّم الأجيال، فإذا بأبي تمام
يعبر عن حبّه لوطنه، في القرن الثالث الهجري، على الشكل التالي:

بالشّام قُومِي وبغدادِ الهوى وأنا بالرقمّتين وبالفسطاط إخواني

ونحن اليوم ننظر بعينيّ أبي تمام الى هذا الوطن الكبير من أقصى بغداد إلى
الفسطاط، ومن الرقمّتين إلى الشام ونحسد الشاعر الجاهلي في دفاعه عن الخيام
التي يشير الحرب العوان من أجلها ويستमित في الدفاع عنها.

وقد عبّر الشعراء، الذين غادروا ديارهم، عن شوقهم الى تلك الديار وبكوا
لبعدهم عنها كما فعل أبو فراس في القدماء وشوقي في المحدثين حين يقول:

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي
شهد الله لم يغب عن جفونني شخصه ساعة ولم يخلُ حسني

إنّ وطنه لم يبرح من خياله ولن تلهيه عنه جنّات النعيم.

والشعر الوطني كثير في الأدب العربي لا يمكن حصره في دراسة أو عرضه في صفحات، وإنّما نشير الى أن الوطن العربي قد مرّت به هزّات عنيفة على مرّ الأجيال، فقد غادر العرب الأندلس بما فيها من قصور بنوها وبما تمتاز به من مناخ، فبكوها بكاءً لا ينقطع ورثوها في أشعارهم. وقد نكب العرب بهجمات الترك والمغول والتتار، فهجروا ديارهم ومدحوا أوطانهم مديحاً اختلطت فيه المدامع بالاشواق والتنهّدات. ثم هجمت على ديارهم جيوش الغرب في القرن الثالث عشر للميلاد باسم الدين واحتلت جزءاً من أرضهم، فهجروا وسافروا وتغرّبوا. وقد عادت هذه الجيوش مرّة أخرى باسم الحضارة والمدنيّة والانتداب، فهاجر الأحرار الى خارج أوطانهم وأرسلوا مديحهم في الوطن وحبّ الديار، فجاء ثناء عاطراً على النيل ودجلة وبردى. وما لبث الحكم التركي أن أطلّ عليهم فضاقت بهم الأرض من جديد وهاجروا إلى ديار العالم الجديد، ولكنّ قلبهم ظلّ عالقاً بصخور لبنان وينابيع الشّام. أما المأساة الأخيرة التي فجّرت أشعارهم فكانت نكبة أهل فلسطين التي كانت وما زالت معينهم الذي لا ينضب في التعبير.

٢ - مديح البلدان

تعلّق الشعراء منذ القديم بحواضر ومدن وبلدان معيّنة فامتدحوها بشعرهم، وسالت فيها عواطفهم حبّاً وإعجاباً وحنيناً. فمالوا الى مكّة والمدينة، وقالوا فيهما شعراً هو أقرب الى الشعر الديني لما فيه من تقديس وإقرار بفضلهما في ولادة النور والهدى. وقال الشعراء في مدينة بغداد شعراً كثيراً لأنّها ظلّت طويلاً موطن الملك ومحطّ الأنظار ومصنع التاريخ الإسلامي خلال عدّة قرون، فقال فيها ابن زريق:

هيّات بغداد الدنيا بأجمعها عندي وسكان بغداد همّ الناس

وقيل الشعر الكثير في فضائل مدينة حلب ودمشق ومصر وغيرها من البلدان، ولو جمع الشعر الذي قيل لزاد على ديوان كبير. وقد اشتهر الصنوبري بمدح البلدان، فأشاد بحلب ووصفها بقصيدة طويلة ذاكرًا جامعها وسروها وساحاتها وميادينها وحراراتها حيث يقول فيها:

فَاخِرِي يَا حَلَبُ الْمَدُنَ نَ يَزِدُ جَاهُكَ جَاهَا
فَلِعَمْرِي إِنَّ تَكُ الْمَدُنَ نَ رَخَاخًا كُنْتَ شَاهَا

فهو يرى أنها أجمل مدن العالم، وهي في نظره شاه الشطرنج والمدن الباقية هي رخاخ فيه. ثم يمتدح دمشق فيرى فيها الدنيا بأسرها حين يقول فيها:

صَفَّتْ دُنْيَا دِمَشْقَ لِسَاكِنِيهَا فَلَسْتَ تَرَى بَغِيرَ دِمَشْقَ دُنْيَا

والشعراء المحدثون مدحوا البلدان كذلك، فأثنوا على ما رأوا فيها داخل الوطن وخارجه. فنظم شوقي شعرًا في مدح باريس، والنيل، وبردى، ودمشق، وزحلة، ولبنان، والآستانة وأسبانيا. قال في بردى قاصدًا دمشق:

جَرَى وَصَفَّقَ يَلْقَانَا بِهَا بَرْدَى كَمَا تَلَقَّاكَ دُونَ الْخُلْدِ رِضْوَانُ
وَقَالَ فِي لَبْنَانَ وَعَاصِمَتِهِ بِيْرُوتَ، وَقَدْ جَعَلَهُمَا مِنْ أَبْدَعِ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ:

لَبْنَانَ وَالْخُلْدَ اخْتَرَعَ اللَّهُ لَمْ يَوْسَمَ بِأَرْوَغٍ مِنْهُمَا مَلَكُوتُهُ
هُوَ ذِرْوَةٌ فِي الْحَسَنِ غَيْرُ مَرُومَةٍ وَذِرَا الْبِرَاعَةِ وَالْحَجَى بِيْرُوتُهُ

وقال في مدينة « زحلة » مسقط رأس زميله خليل مطران مكنيًا عنها « بجارة الوادي » .
يَا جَارَةَ الْوَادِي طَرِبْتُ وَعَادَنِي مَا يَشْبَهُ الْأَحْلَامَ مِنْ ذَكَرَاكِ

ومدح كثير من شعرائنا مدناً في البلاد العربية كالבصرة وبغداد وقرى لبنان ومصر، كما مدح شعراء المهجر مولد عبقريتهم، فعاجوا بالذكرى إلى أوطانهم الأم وصاغوا في حنينهم إليها ذوب عاطفتهم ورقيق شعرهم.

إيليا أبو ماضي

هو إيليا بن ضاهر أبو ماضي (١٨٨٩ م / ١٣٠٦ هـ - ١٩٥٧ م / ١٣٧٧ هـ). أحد كبار شعراء المهجر. ومن أعضاء الرابطة القلمية فيه. ولد في قرية «المحيثة» ببلبنان، وسكن الإسكندرية، وهاجر إلى أميركا. أصدر جريدة «السمير». له «تذكار الماضي»، و«الجداول»، و«الخمائل».

وطن النجوم

وَطَنَ النُّجُومِ أَنَا هُنَا	حَدِّقْ أَتَذْكُرُ مَنْ أَنَا؟
الْمَحْتِ فِي الْمَاضِي الْبَعِيدِ	فَتَى غَرِيرًا أُرْعَنَا؟
جَذْلَانِ يَمْرَحُ فِي حُقُولِكَ	كَالنَّسِيمِ مُدْنِدِنَا
يَتَسَلَّقُ الْأَشْجَارَ لَا ضَجْرًا	يُحِسُّ وَلَا وَتْنِي
وَيَعُودُ بِالْأَغْصَانِ يَبْرِيهَا	سُوقًا أَوْ قَنَا
وَيَخُوضُ فِي وَحْلِ الشَّتَا	مُتَهَلِّلًا مُتَيَمِّنًا
لَا يَتَّقِي شَرَّ الْعُيُونِ	وَلَا يَخَافُ الْأُسْنَا
وَلَكُمْ تَشْيِطَنَ كِي يَدُورَ	الْقَسْوُ عَنْهُ تَشْيِطَنًا

أَنَا ذَٰلِكَ الْوَلَدُ الَّذِي
أَنَا مِنْ مِّمَاهِكَ قَطْرَةٌ
أَنَا مِنْ تُرَابِكَ ذَرَّةٌ
أَنَا مِنْ طُيُورِكَ بُلْبُلٌ
حَمَلَ الطَّلَاقَةَ وَالْبَشَاشَةَ
كَمْ عَانَقْتُ رُوحِي رُبَاكَ
لِلْأَرْضِ يَهْزَأُ بِالرَّيَّاحِ
لِلْبَحْرِ يَنْشُرُهُ بَنُوكَ
لِلَّيْلِ فِيكَ مُصَلِّيًا
لِلشَّمْسِ تَبْطِئُ فِي وَدَاعِ
لِلْبَدْرِ فِي نِيسَانَ يَكْخَلُ
فَيَذُوبُ فِي حَادِقِ الْمَهَى
لِلْحَقْلِ يَرْتَجِلُ الرِّوَائِعَ
لِلْعُشْبِ أَثْقَلَهُ النَّدى
عَاشَ الْجَمَالَ مُشَرِّدًا
حَتَّى أَنْكَشَفْتَ لَهُ فَأَلْقَى
وَاسْتَعْرَضَ الْفَنُّ الْجِبَالَ

دُنْيَاهُ كَانَتْ هَاهُنَا
فَاضَتْ جَدَاوِلَ مِنْ سَنَا
مَاجَتْ مَوَاكِبَ مِنْ مُنَى
غَنَّى بِمَجْدِكَ فَاعْتَنَى
مِنْ رُبُوعِكَ لِلدُّنَى
وَصَفَّقَتْ فِي الْمُنْحَنَى؟
وَبِالِدُّهُورِ وَبِالْفَنَّا
حَضَارَةٌ وَتَمَدُّنَا
لِلصُّبْحِ فِيكَ مُؤَدِّنَا
ذُرَاكَ كَيْلًا تَحْزَنُنَا
بِالضِّيَاءِ الْأَعْيُنَا
سِحْرًا لَطِيفًا لَيْنَا
زَنْبَقًا أَوْ سَوْسَنًا
لِلْغُصْنِ أَثْقَلَهُ الْجَنَى
فِي الْأَرْضِ يَنْشُدُ مَسْكَنَنَا
رَحْلَهُ وَتَوَطَّنَا
فَكُنْتَ أَنْتَ الْأَحْسَنَا

★ ★ ★

لمصر أم لربوع الشام

لحافظ إبراهيم (★)

لِمِصْرَ أُمِّ لِرُبُوعِ الشَّامِ تَنْتَسِبُ
خِذْرَانِ لِلضَّادِ لَمْ تُهْتِكْ سُورُهُمَا
أُمُّ اللِّغَاتِ غِدَاةُ الْفَخْرِ أُمُّهُمَا
أَيَّرُغَبَانَ عَنِ الْحُسْنَى وَبَيْنَهُمَا
إِذَا أَلَمَّتْ بِوَادِي النِّيلِ نَازِلَةٌ
وَإِنْ دَعَا فِي ثَرَى الْأَهْرَامِ ذُو أَلَمٍ
لَوْ أَخْلَصَ النَّيْلُ وَالْأَرْدُنُّ وَدَّهُمَا
نَسِيمَ لَبْنَانَ كَمْ جَادَتْكَ عَاطِرَةٌ
فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ أَنْفَاسٌ مُسَعَّرَةٌ
لَوْ لَا طِلَابُ الْعُلَى لَمْ يَبْتَغُوا بَدَلًا
بِأَرْضِ كَوْلَمِبِ أَبْطَالُ غَطَارِفَةٍ

هنا العلى وهنالك المجد والحسبُ
ولا تحوّل عن مغناهما الأدب^(١)
وإن سألت عن الآباء فالعربُ
تلك القرابة لم يقطع لها سببُ
باتت لها راسيات الشام تضطربُ
أجابهُ في ذرى لبنان مُتَحِيبُ
تصافحتُ منهما الأمواه والعشبُ
من الرياضِ وكم حيّاك مُنْكِيبُ
تهفؤ إليك وأكبادُ لها لهبُ
من طيب ريّاك لكنّ العلى تعبُ
أسدّ جياغ إذا ما وُثِبُوا وَثِبُوا^(٢)

(★) سبق التعريف به.

(١) خدران للضاد: موطنان للغة العربية.

(٢) كولمب: أي أميركا.

لَمْ يَحْمِهِمْ عِلْمٌ فِيهَا وَلَا عَدَدٌ
 أَسْطَوُلُهُمْ أَمَلٌ فِي الْبَحْرِ مُرْتَحِلٌ
 لَمْ تَبْدُ بَارِقَةٌ فِي أَفْقٍ مُنْتَجِعٍ
 مَا عَابَهُمْ أَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ قَدْ نُثِرُوا
 رَادُّوا الْمَنَاهِلَ فِي الدُّنْيَا وَلَوْ وَجَدُوا
 أَوْ قِيلَ فِي الشَّمْسِ لِلرَّاجِينَ مُنْتَجِعٌ
 سَعَوْا إِلَى الْكَسْبِ مَحْمُودًا وَمَا فَتِنَتْ
 فَأَيْنَ كَانَ الشَّامِيُّونَ كَانَ لَهَا
 هَذِي يَدِي عَنْ بَنِي مِصْرٍ تُصَافِحُكُمْ
 سِوَى مَضَاءٍ تَحَامِي وَرَدَّةُ النَّوَبِ
 وَجَيْشُهُمْ عَمَلٌ فِي الْبَرِّ مُغْتَرِبٌ
 إِلَّا وَكَانَ لَهَا بِالشَّامِ مُرْتَقِبٌ
 فَالشُّهْبُ مَنْشُورَةٌ مَذْكَانَتِ الشُّهْبِ
 إِلَى الْمَجَرَّةِ رَكْبًا صَاعِدًا رَكِبُوا
 مَدَّوْا لَهَا سَبَبًا فِي الْجَوِّ وَانْتَدَبُوا
 أُمُّ اللَّغَاتِ بِذَاكَ السَّعْيِ تَكْتَسِبُ
 عَيْشٌ جَدِيدٌ وَفَضْلٌ لَيْسَ يَحْتَاجِبُ
 فَصَافِحُهَا، تَصَافِحُ نَفْسَهَا الْعَرَبُ

★ ★ ★

دمشق يا جبهة المجد

شَمَمْتُ تُرْبِكَ لَا زُلْفَى وَلَا مَلَقَا
 وَمَا وَجَدْتُ إِلَى لُقْيَاكِ مُنْعَطَفَا
 كُنْتُ الطَّرِيقَ إِلَى هَاوٍ تُنَازِعُهُ
 وَكَانَ قَلْبِي إِلَى رُؤْيَاكِ بَاصِرَتِي
 شَمَمْتُ تُرْبِكَ أَسْتَاْفُ الصَّبَا مَرِحَا
 وَسِرْتُ قَصْدَكَ لَا كَالْمُشْتَهِي بَلَدَا
 وَسِرْتُ قَصْدَكَ لَا خِيَا وَلَا مَذَقَا^(١)
 إِلَّا إِلَيْكَ وَلَا أَلْفَيْتُ مُفْتَرَقَا
 نَفْسٌ تَسُدُّ عَلَيْهِ دُونَهَا الطَّرْقَا
 حَتَّى أَتَهَمْتُ عَلَيْكَ الْعَيْنَ وَالْحَدَقَا
 وَالشَّمْلَ مُؤْتَلِفَا وَالْعِقْدَ مُؤْتَلِقَا^(٢)
 لَكِنْ كَمَنْ يَتَشَهَّى وَجْهَ مَنْ عَشِقَا

(١) الخب: الخداع. المذق: المغشوش.

(٢) استاف: أشم.

قالوا : « دِمَشْقُ » و « بَغْدَادُ » فَقُلْتُ هُمَا
 مَا تَعَجُّبُونَ ؟ أَمِنْ مَهْدَيْنِ قَدْ جُمِعَا
 أَمْ صَامِدَيْنِ يَرَبَّانِ الْمَصِيرَ مَعَا
 يُهْدِهِيْدَانِ لِسَانًا وَاحِدًا وَدَمًّا
 « دِمَشْقُ » عِشْتُكَ رِيْعَانَا وَخَافِقَةٌ
 وَهِيَ أَنَا وَيَدَيَّ جِلْدٌ وَسَالِفَتِي
 وَأَنْتِ لَمْ تَبْرَحِي فِي النَّفْسِ عَالِقَةٌ
 تَمْوَجِسْنَ ظِلَالَ الذِّكْرِيَاتِ هَوَى

فَجَرَّ عَلَى الْغَدْرِ مِنْ أُمْسِيهِمَا أَنْبَقَا
 أَمْ تَوَأْمِيْنَ عَلَى عَهْدِيْهِمَا اتَّفَقَا
 حُبًّا ، وَيَقْتَسِمَانِ الْأَمْنَ وَالْفَرَقَا
 صِنُوَا وَمُعْتَقَدًا حُرًّا وَمُنْطَلَقَا
 وَلِمَّةٌ وَالْعُيُونُ السُّودَ وَالْأَرْقَا
 ثَلَجٌ وَوَجْهِيَّ عَظْمٌ كَادَ أَوْ عُرِقَا
 دَمِي وَلَحْمِي وَالْأَنْفَاسَ وَالرَّمَقَا
 وَتُسْعِدِيْنَ الْأَسَى وَالْهَمَّ وَالْقَلَقَا

محمد مهدي الجواهري

★ ★ ★

وقال أحمد شوقي في دمشق :

أَلَسْتُ دِمَشْقُ لِلْإِسْلَامِ ظُهُرًا
 وَكُلُّ حَضَارَةٍ فِي الْأَرْضِ طَالَتْ
 سَمَاوُكَ مِنْ حِلَى الْمَاضِي كِتَابٌ
 بَنِيَتْ الدَّوْلَةُ الْكُبْرَى وَمُلْكَا
 لَهُ بِالشَّامِ أَعْلَامٌ وَعِرسٌ
 وَمُرْضَعَةُ الْأُبُوَّةِ لَا تُعَقُّ (١)
 لَهَا مِنْ سَرْحِكِ الْعُلُويِّ عِرْقُ (٢)
 وَأَرْضُكَ مِنْ حِلَى التَّارِيخِ رَقٌّ (٣)
 غُبَارُ حَضَارَتِيهِ لَا يُشَقُّ
 بِشَائِرِهِ بِأَنْدَلُسٍ تَدُقُّ

★ ★ ★

-
- (١) الظئر: المرأة المرضعة.
 (٢) السرح: نوع من الشجر العالي.
 (٣) الرق: الجلد الذي يكتب عليه.

أبيات رائعة في حب الوطن ومدحه

أَحِبُّ بِلَادَ اللَّهِ مَا بَيْنَ مَنْعَجٍ إِلَى دَارِ سَلَمَى أَنْ يَصُوبَ سَحَابُهَا
بِلَادُ بِهَا حَلَّ الشَّبَابِ تَمَائِمِي وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدِي تُرَابُهَا

أحمد بن يحيى

★ ★ ★

بَلَدٌ صَحِبْتُ بِهِ الشَّبِيَّةَ وَالصَّبَا وَلَبِستُ ثَوْبَ الْعَيْشِ وَهُوَ جَدِيدُ
فَإِذَا تَمَثَّلَ فِي الضَّمِيرِ رَأْيَتُهُ وَعَلَيْهِ أَفْنَانُ الشَّبَابِ تَمِيدُ

ابن الرومي

وَحَبَّبَ أَوْطَانَ الرَّجَالِ إِلَيْهِمْ مَارِبُ قَضَاهَا الشَّبَابُ هُنَالِكَ
إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَرَتْهُمْ عُهْدَ الصَّبَى فِيهَا فَحَنُّوا لِذَلِكَ

ابن الرومي

★ ★ ★

إِذَا دَنَتْ الْمَنَازِلُ زَادَ شَوْقِي وَلَا سِيَمَا إِذَا دَنَتْ الْخِيَامُ
فَلَمَحَ الْعَيْنِ دُونَ الْحَيِّ شَهْرٌ وَرَجَعَ الطَّرْفِ دُونَ السَّيْرِ عَامُ

بِالشَّامِ قَوْمِي وَبَغْدَادُ الْهَوَى وَأَنَا
وَمَا أَظُنُّ النَّوَى تَرْضَى بِمَا صَنَعْتُ
بِالرَّقْمَتَيْنِ وَبِالْفُسْطَاطِ إِيَّوَانِي
حَتَّى تُبَلِّغُنِي أَقْصَى خُرَاسَانَ
أبو تمام

★ ★ ★

وَطَنِي لَوْ شُغِلْتَ بِالْخُلْدِ عَنْهُ
وَهَفَا بِالْفُؤَادِ فِي سَلَسِيلِ
نَازَعْتَنِي إِلَيْهِ فِي الْخُلْدِ نَفْسِي
ظَمًا لِلْسَّوَادِ مِنْ عَيْنِ شَمْسٍ
شَهِدَ اللَّهُ لَمْ يَغِبْ عَنْ جُفُونِي
شَخْصُهُ سَاعَةً وَلَمْ يَخُلْ حِسِّي
شوقي

★ ★ ★

وَنَسْمَةٍ كَشَمِيمِ الْخُلْدِ قَدْ حَمَلْتُ
هَلَّا أَرَانِي بِذَلِكَ الْحَيِّ مُجْتَمِعًا
رَيَّا الْأَزَاهِيرِ مِنْ مَيِّتٍ وَأَجْرَاعٍ^(١)
بِأَهْلِ وَدِّي مِنْ قَوْمِي وَأَشْيَاعِي
محمود البارودي

★ ★ ★

هَيْهَاتَ بَغْدَادُ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا
عِنْدِي وَسُكَّانُ بَغْدَادِ هُمْ النَّاسُ
ابن زريق

★ ★ ★

سَقَى اللَّهُ بَغْدَادَ مِنْ بَلَدَةٍ
حَوَتْ كُلَّ مَا لَدَّ لِلْأَنْفُسِ

★ ★ ★

(١) الميت: ج الميتاء، وهي الأرض اللينة. الأجرع: الأرض السهلة.

تَنَامُ بِهَا عَيْنُ الْغَرِيبِ وَلَا تَرَى غَرِيبًا بِأَرْضِ الشَّامِ يَطْمَعُ فِي الْغَمَضِ

★ ★ ★

كَأَنَّهَا الْجَنَّةُ الَّتِي جَمَعَتْ مَا تَشْتَهِي الْأَعْيُنُ وَالْأَنْفُسُ

كشاجم

★ ★ ★

أَنَا أَحْمِي حَلْبًا دَا رَا وَأَحْمِي مَنْ حَمَاهَا

أَيُّ حُسْنٍ مَا حَوَّتْهُ حَلْبٌ أَوْ مَا حَوَّاهَا

فَاخِرِي يَا حَلْبُ الْمَدِّ نَ يَزِدُ جَاهُكَ جَاهَا

فَلَعَمْرِي إِنَّ تَكُ الْمَدِّ نَ رَخَاخًا كُنْتَ شَاهَا^(١)

الصنوبري

★ ★ ★

صَفْتُ دُنْيَا دِمَشْقَ لِسَابِكِيهَا فَلَسْتُ تَرَى بَغِيرِ دِمَشْقَ دُنْيَا

الصنوبري

★ ★ ★

قَالَ الرَّفَاقُ، وَقَدْ هَبَّتْ خَمَائِلُهَا الْأَرْضُ دَارٌ لَهَا الْفَيْحَاءُ بُسْتَانُ

جَرَى وَصَفَّقَ يَلْقَانَا بِهَا بَرْدَى كَمَا تَلْقَاكَ دُونَ الْخُلْدِ رِضْوَانُ

شوقي

★ ★ ★

(١) أي هي في نظره شاه الشطرنج، والمدن الباقية رخاخ فيه.

لُبْنَانُ وَالْخُلْدُ أَخْتِرَاغُ اللَّهِ لَمْ يُوسَمَ بِأَزَيْنَ مِنْهُمَا مَلَكُوتُهُ
هُوَ ذُرْوَةٌ فِي الْحُسْنِ غَيْرُ مَرُومَةٍ وَذُرَا الْبَرَاغَةِ وَالْحِجَى بَيَرُوتُهُ

شوقي

★ ★ ★

حَتَّى بَدَتْ حَلَبٌ حَسَنَاءَ لَا بَسَةَ ثَوْبًا أَغَرَّ بِوَشْيِ اللَّهِ مُزْدَانَا
تَمَثَّلْتُ لِي سُلْطَانًا وَقَلْعَتُهَا تَاجًا يَتِيهُ بِهِ عِزًّا وَسُلْطَانَا
تَحْكِي حَدَائِقُهَا حَفَّتْ مَنَازِلُهَا بَحْرًا سَحِيقَ الْمَدَى بِالسُّفْنِ مَلَانَا

عادل الغضبان

★ ★ ★

القسم الثالث

متفرقات مَذْحِيَّة

وقال الحطيئة لعُمَرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه، وكان حبسه لاستعداد
الزَّبَرِقان عليه:

ماذا تقول لأفراخٍ بذي مَرخٍ زغب الحواصيل لا ماء ولا شجر^(١)
غَيَّبْتَ كاسِبَهُمْ في قعرٍ مُظْلِمَةٍ فاغفر، عليك سلامُ الله، يا عُمَرُ^(٢)
أنتَ الأمينُ الذي من بعدِ صاحبه أَلَقْتُ إِلَيْكَ مقاليدَ النهي البَشَرُ^(٣)
لَمْ يُؤْثِرُوا بها إِذْ قَدَّمُوا لها لكنْ لأنفُسِهِمْ كانتَ بها الأثرُ^(٤)
فامتننْ على صِبيَّةٍ بالرَّمْلِ مَسْكَنُهُمْ بينَ الأباطحِ يَغشاهُمْ بها القِرَرُ^(٥)
أَهْلِي، فِداؤُكَ، كمَ بَني وبينَهُم مِن عَرَضِ دَوِيَّةٍ يَفْنَى بها الحجرُ^(٦)

★ ★ ★

- (١) ذو مرخ: اسم موضع. زغب الحواصيل: كناية عن أنهم ما زالوا أطفالاً.
(٢) كاسبهم: من يكسب قوتهم، أي: والدهم. مظلمة: بئر مظلمة، وهي سجنه.
(٣) يعني بالصاحب أبا بكر الصديق. يقال: ألقوا إليه مقاليدهم: إذا قلدوه أمورهم. النهي: جمع نهية: العقل.
(٤) لم يؤثروك بها: لم يخصوك بها، من أثره إثارة: اختاره وفضله. الأثر جمع الأثرة: الاستئثار.
(٥) من عليه: أنعم عليه نعمة طيبة. الأباطح: جمع الأبطح: المكان المتسع يمر به السيل، فيترك فيه الرمل والحصى الصغار. يغشاهم بها القِرَر: يصيبهم بها البرد. القِرَر: جمع القِرَّة: البرد.
(٦) الدَّويَّة: الفلاة.

من قصيدة للسيد الرضي الموسوي يمدح
بها امير المؤمنين الطائع لله

بَلَوْتُ وَجَرَّبْتُ الْأَخْلَاءَ مُدَّةً فَأَكْثَرُ شَيْءٍ فِي الصَّدِيقِ مَلَالُ
وَمَا رَاقَنِي مِمَّنْ أَوْدٌ تَمَلَّقُ وَلَا غَرَّنِي مِمَّنْ أَحَبُّ وَصَالُ
وَمَا صَحْبُكَ الْأَذْنُونِ إِلَّا أَبَاعِدُ إِذَا قَلَّ مَالٌ أَوْ نَبَتْ بِكَ حَالُ
وَمَنْ لِي بِخُلٍّ أَرْتَضِيهِ وَلَيْتَ لِي يَمِينًا تُعَاطِيهَا الْوَفَاءُ شِمَالُ
تَمِيلُ بِي الدُّنْيَا إِلَى كُلِّ شَهْوَةٍ وَأَيْنَ مِنَ النَّجْمِ الْبَعِيدِ مَنَالُ
وَتَسْلُبُنِي أَيْدِي النَّوَائِبِ ثُرُوتِي وَلِي مِنْ عَفَافِي وَالتَّقْنَعِ مَالُ
أَنَا الْمَرْءُ لَا عِرْضِي قَرِيبٌ مِنَ الْعِدَى وَلَا فِيَّ لِلْبَاغِي عَلَيَّ مَقَالُ

★ ★ ★

ومن قصيدة لابن نباتة السعدي في سيف الدولة

قَدْ جُدْتَ لِي بِاللَّهِ حَتَّى ضَجَرْتُ بِهَا وَكَدْتُ مِنْ ضَجَرِي أَثْنِي عَلَى الْبُخْلِ
إِنْ كُنْتَ تَرْغَبُ فِي بَذْلِ النَّوَالِ لَنَا فَأَخْلُقْ لَنَا رَغْبَةً أَوْ لَا فَلَا تُنْصَلِ
لَمْ يُبْقِ جُودُكَ لِي شَيْئًا أَوْمِلُهُ تَرَكَتَنِي أَصْحَابُ الدُّنْيَا بِلاَ أَمَلِ

★ ★ ★

وله ايضاً فيه

سُيُوفُكَ أَمْضَى فِي النَّفُوسِ مِنَ الرَّدَى وَخَوْفُكَ أَمْضَى مِنْ سُيُوفِكَ فِي الْعِدَى
فَتَّى يَتَحَامَى لَذَّةَ النَّوْمِ جَفْنُهُ كَانَ لَذِيذَ النَّوْمِ فِي جَفْنِهِ قَذَى
وَمَنْ سَهَرَتْ فِي الْمَكْرُمَاتِ جَفُونُهُ رَعَى طَرَفُهُ فِي جَوِّهَا أَنْجُمَ الْعُلَى
فَلَيْسَ يَنَامُ الْقَلْبُ وَالْجَفْنُ سَاهِرٌ وَلَا تُغْمَدُ الْعَيْنَانِ وَالْقَلْبُ مُنْتَضَى

★ ★ ★

ومن قصيدة لمحمد بن عبد الله

السلامي في الصاحب

أَمَّا لَكَ غَيْرُ بَأْسِكَ مِنْ عَتَادٍ وَلَا غَيْرُ الْعِظَائِمِ مِنْ رُكُوبٍ
تَرَوْضُ مَصَاعِبَ الْأَيَّامِ قَهْرًا وَتَحْمِلُهَا عَلَى عُودٍ صَلِيبٍ
وَتَبْذُلُ دُونَ تَاجِ الْمُلْكِ نَفْسًا مُتِّمَّةً بِتَنْفِيسِ الْكُـرُوبِ
وَجَرَّبَتْ الْمُلُوكُ فَمَا أَصَابَتْ لِدَاءِ الْمُلْكِ غَيْرَكَ مِنْ طَبِيبٍ

★ ★ ★

ولأبي الفتح البستي في محمد بن حامد

بِنَفْسِي أَخْ نَفْسُهُ أَمَّةٌ وَتَدْيِيرُهُ فِي الْوَرَى فَيَلْقُ
أَخْ بَابُ إِحْسَانِهِ مُطْلَقٌ وَبَابُ إِسَاءَتِهِ مُغْلَقٌ

مُحَمَّدُ أَنْتَ قَرَى نَاطِرِي فَكَيْفَ إِذَا غِبْتَ لَا أَقْلِقُ
رَهْنُكَ قَلْبِي وَحُكْمُ الْقُلُوبِ إِذَا رُهِنْتَ أَنْتَهَا تُغْلِقُ

★ ★ ★

ومن قصيدة لأبي الحسن عمر النوقاني في الأمير خلف

لَكَ الدُّنْيَا وَمَنْ فِيهَا وَلَكِنْ تَلَا حِظُّهَا بِعَيْنَيْكَ أَحْتَقَارًا
تَكَبَّرَ ذَا الزَّمَانِ عَلَى بَنِيهِ فَعِشْ حَتَّى تُعَلِّمَهُ الصَّغَارَا
وَصَارَ صِغَارُهُمْ فِيهِ كِبَارَا قَدُمٌ حَتَّى تَرُدَّهُمْ صِغَارَا
خَدَمْتُ لَكَ الْمُلُوكَ أَرُوضُ نَفْسِي لِأَمَنْ تَحْتَ خِدْمَتِكَ أَلْعَارَا
وَلَوْ كَانَتْ لَنَا الدُّنْيَا جَعَلْنَا لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا نِشَارَا

★ ★ ★

ومن قصيدة لابن مطروح في الوزير عماد الدين

وَهَبْتُ عَلَيْنَا نَفْحَةً غُبَرِيَّةً كَعَرَفِ عِمَادِ الدِّينِ حِينَ تُقَابِلُهُ
فَقُمْتُ مِنَ الْإِجْلَالِ أَنْشِدُ مَدْحَهُ وَقَدْ سَبَقْتَنِي قَبْلَ ذَاكَ فَوَاضِلُهُ
تَكَافَأَ فِي الْإِحْسَانِ شِعْرِي وَمَدْحُهُ وَلَكِنْ بِخَصْلِ السَّبْقِ فَازَتْ أُنَامِلُهُ

★ ★ ★

ومن قصيدة لحلفة بن حليفة الاقطع مولى
قيس بن ثعلبة يمدح قومه

عَذَابٌ عَلَى الْأَفْوَاهِ مَا لَمْ يَذُقْهُمْ عَدُوٌّ وَبِالْأَفْوَاهِ أَسْمَاؤُهُمْ تَحْلُو
عَلَيْهِمْ وَقَارُ الْحِلْمِ حَتَّى كَانَمَا وَلَيْدُهُمْ مِنْ أَجْلِ هَيْبَتِهِ كَهْلُ
إِذَا اسْتُجْهِلُوا لَمْ يَغْرُبِ الْحِلْمُ عَنْهُمْ وَإِنْ آثَرُوا أَنْ يَجْهَلُوا عَظُمَ الْجَهْلُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْقَتْلَ غَالٍ إِذَا رَضُوا وَإِنْ غَضِبُوا فِي مَوْطِنٍ رَخَصَ الْقَتْلُ
إِذَا طَلَبُوا ذَحْلًا^(١) فَلَا الذَّحْلُ فَائِتٌ وَإِنْ ظَلَمُوا أَكْفَاءَهُمْ بَطَلَ الذَّحْلُ

★ ★ ★

وقالت ليلي الأخيلية في الحجَّاج

أَحْجَّاجُ إِنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ غَايَةً يَقْصِرُ عَنْهَا مَنْ أَرَادَ مَدَاهَا
إِذَا وَرَدَ الْحَجَّاجُ أَرْضًا مَرِيضَةً تَتَّبِعَ أَقْصَى دَائِلِهَا فَشَفَاهَا
شَفَاهَا مِنْ الدَّاءِ الْعِيَاءِ الَّذِي بِهَا غَلَامٌ إِذَا هَزَّ الْقَنَاةَ ثَنَاهَا
إِذَا سَمِعَ الْحَجَّاجُ صَوْتَ كَتِيبَةٍ أَعَدَّ لَهَا قَبْلَ النُّزُولِ قِرَاهَا

★ ★ ★

(١) ثَارًا.

وقال خالد بن جعفر الكلابي يمدح النعمان بن المنذر

أَخْلَقُ مَجْدِكَ جَلَّتْ^(١) مَا لَهَا خَطَرٌ^(٢) فِي الْبَاسِ وَالْجُودِ بَيْنَ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ
مُتَوَجِّحٌ بِالْمَعَالِي فَوْقَ مَفْرِقِهِ وَفِي الْوَعَى ضَيْغَمٌ فِي صُورَةِ الْقَمَرِ
إِذَا دَجَا الْخَطْبُ جَلَّاهُ بِصَارِمِهِ كَمَا يُجَلَّى زَمَانُ الْمَحَلِّ بِالْمَطَرِ

★ ★ ★

وقال أبو الحسن أحمد الكاتب يمدح عبيد الله بن سليمان

إِذَا أَبُو قَاسِمٍ جَادَتْ لَنَا يَدُهُ لَمْ يُحْمَدِ الْأَجُودَانِ الْبَحْرُ وَالْمَطَرُ
وَإِنْ أَضَاءَتْ لَنَا أَنْوَارُ عِزَّتِهِ تَضَاءَلِ الْأَنْوَرَانِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
يَنَالُ بِالظَّنِّ مَا يَغِيَا أَلْعِيَانُ بِهِ وَالشَّاهِدَانِ عَلَيْهِ الْعَيْنُ وَالْأَثَرُ

★ ★ ★

وقال آخر في قوم كرام

إِذَا رَكِبُوا زَادُوا الْمَوَاصِبَ بِهَجَةٍ وَإِنْ جَلَسُوا كَانُوا صُدُورَ الْمَجَالِسِ

★ ★ ★

(١) جَلَّتْ: سبقت.

(٢) الخطر: المثل والنظير.

وقال أبو نواس في مدح الخصيب

إِذَا لَمْ تَزُرْ أَرْضَ الْخَصِيبِ رِكَابُنَا فَأَيَّ فَتَى بَعْدَ الْخَصِيبِ تَزُورُ
فَمَا فَاتَهُ جُودٌ وَلَا ضَلَّ دُونَهُ وَلَكِنْ يَسِيرُ الْجُودُ حَيْثُ يَسِيرُ

★ ★ ★

وقال آخر في كريم

إِنَّ آلِهَاتِ آلِي جَادَ الْكِرَامُ بِهَا مَطْرُوقَةٌ وَنَدَى كَفَّيْكَ مُبْتَكِرُ
مَا زِلْتَ تَسْبِقُ حَتَّى قَالَ حَاسِدُكُمْ لَهُ طَرِيقٌ إِلَى الْعَلْيَاءِ مُخْتَصِرُ

★ ★ ★

وقال مسلم بن الوليد يمدح يزيد بن يزيد

تَلَقَّى الْمَنِيَّةَ فِي أَمْثَالِ عُذَّتْهَا كَالسَّيْلِ يَتَذِفُ جُلُودًا بِجُلُودِ
تَجُودُ بِالنَّفْسِ إِذْ شَحَّ الضَّيْنُ بِهَا وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ

★ ★ ★

وقال الغانمي في كريم

سَلَكَتُ طَرِيقَةَ سَيْبِكَ الْأَنْوَاءِ وَتَبَسَّمتُ عَنْ سَيْفِكَ الْعَلْيَاءِ
فِي كُلِّ مَمْلَكَةٍ لِمَجْدِكَ آيَةٌ شَهِدَتْ بِصِحَّتِهَا لَكَ الْأَعْدَاءُ

★ ★ ★

وقال الأرجاني يمدح وليّ الدولة

عَدْتُكَ الْخَادِثَاتُ إِلَى عِدَاكَ فَمَا لِلنَّاسِ مَعْنَى مَا عَدَاكَ
فَأَنْتَ سَنَنْتَ لِلنَّاسِ الْمَعَالِي وَإِنْ لَمْ يَبْلُغُوا فِيهَا مَدَاكَ
خُلِقْتَ مِنَ الْعَلَا وَالْمَجْدِ حَتَّى تَضُمَّنْتَ الْفَضَائِلَ بُرْدَتَاكَ
فَلَوْ كَانَ الْعَلَا وَالْمَجْدُ شَخْصًا يَرَاهُ النَّاظِرُونَ لَكُنْتَ ذَاكَ
وَتَسْمَعُ مِنَ كِرَامِ النَّاسِ ذِكْرًا وَتَنْظُرُ مَا نَرَى أَحَدًا سِوَاكَ
فَمَا أَكْتَحَلْتَ بِنُورِ السَّعْدِ يَوْمًا مِنْ الدُّنْيَا سِوَى عَيْنِ تَرَاكَ

★ ★ ★

وقال غيره في رجل فريد

عَقِمَ النِّسَاءُ فَلَا يَلِدْنَ نَظِيرَهُ فَنَظِيرُهُ فِي الْعَالَمِينَ قَلِيلُ
هَيْهَاتَ لَا يَأْتِي الزَّمَانُ بِمِثْلِهِ إِنَّ الزَّمَانَ بِمِثْلِهِ لَبَخِيلُ

★ ★ ★

من قصيدة لأبي بكر الخوارزمي في عضد الدولة

غَرِيبٌ عَلَى الْأَيَّامِ وَجِدَانٌ مِثْلِهِ وَأَغْرَبُ مِنْهُ بَعْدَ رُؤْيِيهِ الْفَقْرُ
فَلَا حُرَّ إِلَّا وَهُوَ عَبْدٌ لِجُودِهِ وَلَا عَبْدَ إِلَّا وَهُوَ فِي عَدْلِهِ حُرُّ
عَجِبْتُ لَهُ لَمْ يَلْبَسِ الْكِبَرُ حُلَّةً وَفِينَا لِأَنْ جُزْنَا عَلَى بَابِهِ كِبَرُ

ومن قصيدة لعبدالله الرقاشي في

ابي سعيد احمد بن شبيب

إِنَّ الْفَتْوحَ عَلَى يَدَيْكَ تَتَابَعْتُ كَتَّابُعِ الْأَنْوَاءِ فِي نَيْسَانَ
خَفَقْتُ بُنُودَكَ حَوْلَهُمْ فَكَأَنَّمَا طَارَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ الْخَفَقَانِ
وَلَيْنُ حُسَيْدَتَ فَلَسْتُ أَوَّلَ سَابِقٍ يَرْمِيهِ بِالْبَغْضَاءِ الْأُمُّ وَإِنِّي
إِنَّ الْكَرِيمَ مُحَسَّدٌ فِي قَوْمِهِ وَتَرَى الْحَسُودَ مَطِيَّةَ الْأَشْجَانِ

★ ★ ★

وللقاضي التنوخي علي بن محمد في مدح احدهم

رِضَاكَ شَبَابٌ لَا يَلِيهِ مَشِيبٌ وَسُخْطُكَ دَاءٌ لَيْسَ مِنْهُ طَيْبٌ
كَأَنَّكَ مِنْ كُلِّ النَّفُوسِ مُرَكَّبٌ فَأَنْتَ إِلَى كُلِّ النَّفُوسِ حَيْبٌ

★ ★ ★

وقال الأرجاني يمدح بعضهم

وَقَضَى لَهُ بِالْفَضْلِ أَهْلُ زَمَانِهِ بِشَهَادَةِ الْأَعْدَاءِ وَالْحُسَّادِ
وَسَمِعْتُ أَخْبَارَ النَّدَى عَنْ كَفِّهِ فَعَرَفْتُ فِيهَا صِحَّةَ الْإِسْنَادِ
مِنْ مَعْشَرٍ بِيضِ الْوُجُوهِ أَكَارِمٍ يَوْمَ السَّمَاحِ وَفِي الْوَعَى أَنْجَادِ

رَضَعُوا لِبَنَ الْمَجْدِ فِي حِجْرِ الْعُلَى فَعَلُوا عَلَى الْأَكْفَاءِ وَالْأَنْدَادِ
قَوْمٌ إِذَا سَفَرُوا حَسِبَتْ وُجُوهُهُمْ لِلنَّاطِرِينَ أَهْلَةً الْأَعْيَادِ

★ ★ ★

ومن قصيدة لعبد السلام بن الحسين المأموني في أبي الحسن المزني

طَبَعَتْ مُزَيْنَةً مِنْهُ^(١) عَضْبًا مَا لَهُ فِي غَيْرِ هَامَاتِ الْأَسُودِ قَرَارُ
أَرَاؤُهُ، بِيَضُ الطُّبَى وَحَدِيثُهُ رَوْضُ الرَّبَى وَيَمِينُهُ تَيَّارُ
ضُمَّتْ عَلَى الدُّنْيَا بَدَائِعُ لَفْظِهِ فَكَأَنَّهَا زَنْدٌ وَهْنٌ سِوَارُ
وَإِذَا الْعُلُومُ اسْتَبْهَمَتْ طُرُقَاتُهَا فَذَوُوهُ أَعْلَامٌ لَهَا وَمَنَارُ
عَزَمَاتُهُمْ قُضِبٌ وَقَيْضُ أَكْفُهُمْ سُحْبٌ وَبِيضٌ وَجُوهُهُمْ أَقْمَارُ
يَا مَنْ إِذَا أَطْرَى الْقَبَائِلَ شَاعِرٌ صَلَّتْ عَلَى آيَاتِهِ الْأَشْعَارُ
فَارْحَمَ بِمَنْكَبِكَ السَّمَاءَ أَمَا تَرَى لِسِوَاكَ فِي خِطَطِ النُّجُومِ جِوَارُ
وَالْأَرْضُ مُلْكُكَ وَالْوَرَى لَكَ غِلْمَةٌ وَالْدَّهْرُ عَبْدُكَ وَالْعُلَى لَكَ دَارُ

★ ★ ★

(١) مريئة: قبيلة الممدوح والضمير في منه عائد إليه.

للقاضي أبي محمد بن عطية

كَمْ صَدْمَةٍ لَكَ فِيهِمْ مَشْهُورَةٌ غَصَّ الْعِرَاقُ بِذِكْرِهَا وَالشَّامُ
فِي مَازِقٍ فِيهِ الْأَسِنَّةُ وَالطَّبْشِيرُ بَرَقَ وَنَقَعَ الْعَادِيَاتِ غَمَامُ
وَالضَّرْبُ قَدْ صَبَغَ النَّصُولَ كَأَنَّمَا يَجْرِي عَلَى مَاءِ الْحَدِيدِ ضِرَامُ
وَالطَّعْنُ يَتَّبِعُ النَّجِيعَ كَأَنَّمَا تَنْشَقُّ عَنْ زَهْرِ الشَّقِيقِ كِمَامُ

★ ★ ★

لابن الرومي

أَرَأَيْتُمْ وَوُجُوهَكُمْ وَسُيُوفَكُمْ فِي الْحَادِثَاتِ إِذَا دَجَوْنَ نُجُومُ
مِنْهَا مَعَالِمٌ لِلْهُدَى وَمَصَابِحُ تَجَلُّو الدَّجَى وَالْأَخْرِيَاتُ رُجُومُ

★ ★ ★

لآخر

نَصَبُوا بِقَارِعَةِ الطَّرِيقِ خِيَامَهُمْ يَتَسَابِقُونَ إِلَى قِرَى الضَّيْفَانِ
وَيَكَادُ مَسْوِقُهُمْ يَجُودُ بِنَفْسِهِ حُبَّ الْقِرَى حَطَبًا عَلَى النَّيْرَانِ

★ ★ ★

لأبي الشيص الخزاعي

عَشِقَ الْمَكَارِمَ فَهُوَ مُشْتَغِلٌ بِهَا وَالْمَكْرُمَاتُ قَلِيلَةُ الْعُشَّاقِ
وَأَقَامَ سُوقًا لِلثَّنَاءِ وَلَمْ تَكُنْ سُوقُ الثَّنَاءِ تُعَدُّ فِي الْأَسْوَاقِ
بَثَّ الصَّنَائِعِ فِي الْبِلَادِ فَأَصْبَحَتْ تُجَبَّى إِلَيْهِ مَحَامِدُ الْآفَاقِ

★ ★ ★

لأبي حوثة

قَوْمٌ إِذَا افْتَحَمُوا الْعَجَاجَ رَأَيْتَهُمْ أَسْدًا وَخِلَتْ وَجُوهُهُمْ أَقْمَارًا
لَا يَعْدِلُونَ بِرِفْدِهِمْ عَنْ سَائِلٍ عَدَلَ الزَّمَانُ عَلَيْهِمْ أَوْ جَارًا
وَإِذَا الصَّرِيخُ دَعَاهُمْ لِمِلْمَةٍ بَذَلُوا النَّفُوسَ وَفَارَقُوا الْأَعْمَارًا
وَإِذَا زِنَادُ الْحَرْبِ أَخْمَدَ نَارُهَا قَدَحُوا بِأَطْرَافِ الْأَسِنَّةِ نَارًا

★ ★ ★

لمروان بن ابي حفصة في معن بن زائدة

تَجَنَّبَ لَا فِي الْقَوْلِ حَتَّى كَأَنَّهُ حَرَامٌ عَلَيْهِ قَوْلٌ لَا حِيسَ يُسْأَلُ
تَشَابَهَ يَوْمَاهُ عَلَيْنَا فَأَشْكَلَا فَلَمْ نَكُ نَذْرِي أَيُّ يَوْمَيْنِ أَفْضَلُ
أَيُّومُ نَدَاهُ الْغَمْرِ أَمْ يَوْمُ بَأْسِهِ وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا أَغَرُّ مُحَجَّلُ

بَهَائِلُ فِي الْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ
هُمْ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا
وَمَا يَسْتَطِيعُ الْفَاعِلُونَ فَعَالَهُمْ
كَأَوَّلِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطُوا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا
وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي النَّائِبَاتِ وَأَجْمَلُوا

★ ★ ★

لمحمد بن هانيء في يحيى بن علي بن غلبون

وَكَمْ جَحْفَلٍ مَجْرٍ قَرَعَتْ صَفَاتَهُ
أَتَتْكَ بِهَا آلَاسَادُ تَحْتَ زَيْسِرِهَا
أَتَوْكَ فَمَا خَرُّوا إِلَى الْبَيْضِ سُجَّدًا
وَلَوْ حَارَبَتْكَ الشَّمْسُ دُونَ لِقَائِهِمْ
سَبَقَتْ الْمَنَايَا وَقِعَاءَ بِنُفُوسِهِمْ
تَقَوُّدُ الْكُمَاةِ الْمُعْلَمِينَ إِلَى الْوَعَى
غَزَوْا فِي الدَّرُوعِ السَّابِغَاتِ كَأَنَّمَا
فَلَيْسَ لَهُمْ إِلَّا الدِّمَاءُ مَشَارِبٌ
يَوَدُّونَ لَوْصِيغَتَ لَهُمْ مِنْ حِفَاظِهِمْ
وَلَوْ طَعَنْتَ قَبْلَ الرِّمَاحِ قُلُوبَهُمْ
بِصَاعِقَةٍ تَرْفُضُ مِنْهَا الْجَمَاجِمُ
فَطَارَتْ بِهِ عَنْ جَانِبَيْكَ الْقَشَاعِمُ
وَلَكِنَّمَا كَانَتْ تَخِرُّ الْجَمَاجِمُ
لَأَعْجَلَهَا جُنْدٌ مِنَ اللَّهِ هَازِمُ
كَمَا وَقَعَتْ قَبْلَ الْخَوَافِي الْقَوَادِمُ
لَهُمْ فَوْقَ أَصْوَاتِ الْحَدِيدِ هَمَاهِمُ
تُدِيرُ عُيُونًا فَوْقَهُنَّ الْأَرَاقِمُ
وَلَيْسَ لَهُمْ إِلَّا النُّفُوسَ مَطَاعِمُ
وَإِقْدَامِهِمْ تِلْكَ السُّيُوفُ الصَّوَارِمُ
وَلَوْ سَبَقَتْ قَبْلَ الْأَكْفِ الْمَعَاصِمُ

★ ★ ★

قال النابغة الذبياني في مدح عمرو بن الحارث الأصغر :

إذا ما غزوا بالجيشِ حَلَقَ فوقَهُمُ عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ^(١)
وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سِيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ^(٢)
تُورِثُنَ مِنْ أَيَّامِ يَوْمِ حَلِيمَةِ إِلَى الْيَوْمِ قَدْ جُرَّبْنَ كُلَّ التَّجَارِبِ^(٣)
لَهُمْ شِيْمَةٌ لَمْ يُعْطِهَا اللَّهُ غَيْرَهُمْ مِنْ الْجُودِ وَالْأَحْلَامِ غَيْرُ عَوَازِبِ^(٤)
مَحَلَّتُهُمْ ذَاتُ الْإِلَهِ وَدِينُهُمْ قَوِيْمٌ فَمَا يَرْجُونَ غَيْرَ الْعَوَاقِبِ^(٥)
رِقَاقُ النَّعَالِ طَيِّبٌ حُجُزَاتُهُمْ يُحَيِّوْنَ بِالرَّيْحَانِ يَوْمَ السَّبَّاسِبِ^(٦)

★ ★ ★

وقال زهير بن أبي سلمى في مدح هرم بن سنان أحد الذين سعوا في إنهاء حرب داحس والغبراء :

بَلِ أذْكُرُنَّ خَيْرَ قَيْسٍ كُلِّهَا حَسَبًا وَخَيْرَهَا نَائِلًا وَخَيْرَهَا خُلُقًا
وَذَاكَ أَحْزَمُهُمْ رَأْيًا إِذَا نَبَأٌ مِنْ الْحَوَادِثِ آبَ النَّاسِ أَوْ طَرَقَا

- (١) العصائب : الجماعات .
(٢) الفلول : الثلوم - قراع الكتائب : قتال الجيوش .
(٣) يوم حليلة : أحد أيام العرب التي انتصروا فيها على أعدائهم .
(٤) الشيمة : الميزة الحسنة - غير عواذب : لا تتغير .
(٥) محلَّتْهم : أي مسكنهم . ذات الإله : أي بيت المقدس ، وهي الأرض المقدسة ومنازل الأنبياء . لا يرجون غير العواقب : أي لا يخافون ، وقيل : لا يطلبون إلا عواقب أمورهم ، وحسن الجزاء عليها .
(٦) رقاق النعال : أي منعمون . طيب حجزاتهم : أي أعفاء الفروج . يوم السباسب : أي يوم الشعانين .

فَضْلُ الْجَوَادِ عَلَى الْخَيْلِ الْبَطَاءِ فَلَا
 قَدْ جَعَلَ الْمُبْتَغُونَ الْخَيْرَ فِي هَرَمٍ
 مَنْ يَلْقَى يَوْمًا عَلَى عِلَاتِهِ هَرَمًا
 لَوْ نَالَ حَيٍّ مِنَ الدُّنْيَا بِمَكْرُمَةٍ
 يُعْطَى بِذَلِكَ مَمْنُونًا وَلَا نَزَقًا^(١)
 وَالسَّائِلُونَ إِلَى أَبْوَابِهِ طُرُقًا
 يَلْقَى السَّمَاحَةَ مِنْهُ وَالنَّدَى خُلُقًا^(٢)
 أَفْقَ السَّمَاءِ لَنَالَتْ كَفُّهُ الْأَفْقَا

★ ★ ★

قال زهير بن أبي سلمى في مدح سنان والد هرم:

لَوْ كَانَ يَخْلُدُ أَقْوَامٌ بِمَجْدِهِمْ
 أَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ
 قَوْمٌ أَبْوَهُمْ سِنَانٌ حِينَ تَنْسِبُهُمْ
 إِنْسٌ إِذَا أَمِنُوا جِنٌّ إِذَا غَضِبُوا
 مُحْسَدُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ نِعَمٍ
 لَوْ يُوزَنُونَ عِيَارًا أَوْ مُكَائِلَةً
 أَوْ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَيَّامِهِمْ خَلَدُوا
 قَوْمٌ بِأَوَّلِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا
 طَابُوا وَطَابَ مِنَ الْأَوْلَادِ مَا وَلَدُوا
 مُرَزَّوُونَ بِهَالِيلٍ إِذَا جُهِدُوا^(٣)
 لَا يَنْزِعُ اللَّهُ مِنْهُمْ مَالَهُ حُسِدُوا
 مَالُوا بِرِضْوَى وَلَمْ يَعْدِلْهُمْ أَحَدٌ^(٤)

قال طخيم الأسدي في مدح قوم من أهل الحيرة:

وَإِنِّي وَإِنْ كَانُوا نَصَارَى أَحَبُّهُمْ
 وَيَرْتَاحُ قَلْبِي نَحْوَهُمْ وَيَتَشَوَّقُ

★ ★ ★

(١) النزق: البطر. والمعنى: أن فضل هرم على الرجال كفضل الجواد على الخيل البطاء.

(٢) على علاته: أي في أسوأ حالاته.

(٣) بهاليل: أسياذ - جهدوا: تعبوا.

(٤) رضوى: اسم جبل.

وقال عدي بن زيد بن حمار في مدح بني شيبان:

إِنِّي حَمَدْتُ بَنِي شَيْبَانَ إِذْ خَمَدْتُ نِيرَانُ قَوْمِي وَفِيهِمْ شُبَّتِ النَّارُ^(١)
وَمِنْ تَكْرُمِهِمْ فِي الْمَحَلِّ أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُ الْجَارُ فِيهِمْ أَنَّهُ الْجَارُ^(٢)
حَتَّى يَكُونَ عَزِيزًا مِنْ نَفْسِهِمْ أَوْ أَنْ يَبِينَ جَمِيعًا وَهُوَ مُخْتَارُ^(٣)
كَأَنَّهُ صَدَعٌ فِي رَأْسِ شَاهِقَةٍ مِنْ دُونِهِ لِعِتَاقِ الطَّيْرِ أَوْكَارُ^(٤)

★ ★ ★

قال أحدهم في مدح بني المهلب:

نَزَلْتُ عَلَى آلِ الْمُهَلَّبِ شَاتِيًّا غَرِيبًا عَنِ الْأَوْطَانِ فِي زَمَنِ مَحَلِّ
فَمَا زَالَ بِي إِكْرَامُهُمْ وَاقْتِفَاؤُهُمْ وَإِلْطَافُهُمْ حَتَّى حَسِبْتُهُمْ أَهْلِي^(٥)

★ ★ ★

قال أبو البرج القاسم بن حنبل المرّي في مدح زفر بن أبي
هاشم بن مسعود بن سنان:

فَلَوْ أَنَّ السَّمَاءَ دَنَتْ لِمَجْدِي وَمَكْرُمَةٍ دَنَتْ لَكُمْ السَّمَاءُ

★ ★ ★

(١) خمدت: أطفئت - شبت: أشعلت.

(٢) المحل: القحط والجذب.

(٣) يبين: يبتعد.

(٤) الصدع: صفة للوعل. عتاق الطير: أقواها.

(٥) اقتفاؤهم: أي تتبّع أثر ما يحتاج إليه.

وقال الحطيئة في مدح قوم:

يَسُوسُونَ أَحْلَامًا بَعِيدًا أَنَاتُهَا وَإِنْ غَضِبُوا جَاءَ الْحَفِيفَةُ وَالْجِدُّ^(١)
أَقْلُوا عَلَيْهِمْ لَا أَبَا لِأَيِّكُمْ مِنْ اللَّوْمِ أَوْ سُدُّوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا
أُولَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا الْبِنَا وَإِنْ وَعَدُوا أَوْفَوْا وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا
وَإِنْ كَانَتْ النِّعَمَاءُ فِيهِمْ جَزَوْا بِهَا وَإِنْ أَنْعَمُوا لَا كَدَّرُوهَا وَلَا كَدُّوا
وَإِنْ قَالَ مَوْلَاهُمْ عَلَى جَلٍّ حَدِثْ مِنْ الدَّهْرِ رُدُّوا فَضْلَ أَحْلَامِكُمْ رَدُّوا
وَيَعْدُلْنِي أَبْنَاءُ سَعْدٍ عَلَيْهِمْ وَمَا قُلْتُ إِلَّا بِالَّذِي عَلِمْتُ سَعْدُ

★ ★ ★

وقال الحطيئة في مدح بني أنف الناقة^(٢):

قَوْمٌ هُمْ الْأَنْفُ وَالْأَذْنَابُ غَيْرُهُمْ وَمَنْ يُسَوِّي بِأَنْفِ النَّاقَةِ الذَّنْبَا

★ ★ ★

وقالت امرأة من إِيَاد في مدح ابن عمرو:

الْخَيْلُ تَعْلَمُ يَوْمَ الرَّوْعِ إِنْ هُزِمَتْ أَنَّ ابْنَ عَمْرِو لَدَى الْهَيْجَاءِ يَحْمِيهَا^(٣)

(١) الأحلام: العقول. الحفيظة: الحزم.

(٢) أنف الناقة هو جعفر بن قريع بن عوف بن زيد مناة بن تميم.

(٣) الروع: الفرع والخوف. الهيجاء: الحرب.

لَمْ يُبَدِّ فُحْشًا وَلَمْ يُهْدِدْ لِمَعْظَمَةٍ وَكُلُّ مَكْرُمَةٍ يُلْقَى يُسَامِيهَا^(١)
 الْمُسْتَشَارُ لِأَمْرِ الْقَوْمِ يَحْزِبُهُمْ إِذَا الْهَنَاتُ أَهَمَّ الْقَوْمَ مَا فِيهَا^(٢)
 لَا يَرْهَبُ الْجَارُ مِنْهُ غَدْرَةً أَبَدًا وَإِنْ أَلَمَّتْ أُمُورٌ فَهُوَ كَافِيهَا

★ ★ ★

وقال ابن دارة في مدح عدي بن حاتم الطائي:

تَحِنُّ قُلُوصِي فِي مَعَدٍّ وَإِنَّمَا تَلَاقِي الرَّبِيعَ فِي دِيَارِ بَنِي تَعْلٍ^(٣)
 وَأَبْقَى اللَّيَالِي مِنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ حُسَامًا كَنَصْلِ السَّيْفِ سُلٍّ مِنَ الْخَلَلِ
 أَبُوكَ جَوَادٌ لَا يُشَقُّ غُبَارُهُ وَأَنْتَ جَوَادٌ لَيْسَ تَغْدُرُ بِالْعَزَلِ
 فَإِنْ تَفَعَّلُوا شَرًّا فَمِثْلُكُمْ أَتَقَى وَإِنْ تَفَعَّلُوا خَيْرًا فَمِثْلُكُمْ فَعَلُ

★ ★ ★

وقال حسان بن ثابت في مدح الأنصار:

قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرَبُوا عَدُوَّهُمْ أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِي أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا^(٤)
 سَجِيَّةٌ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحَدَّثَةٍ إِنَّ الْخَلَائِقَ فَأَعْلَمَ شَرُّهَا الْبِدْعُ^(٥)

(١) يهدد: يبادر. المعظمة: الشيء العظيم. يساميه: يباريها.

(٢) الهنات: الأمور الخسيسة. يحزبهم: يضيق عليهم.

(٣) القلوص: الناقة. معد: العرب.

(٤) حاولوا: راموا - الأشياع: الأنصار والأتباع.

(٥) السجية: الخلق. البدع: الشيء المستحدث.

لَا يَرْقَعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكْفُهُمْ عِنْدَ الدَّفَاعِ وَلَا يُوهُونَ مَا رَقَعُوا
 إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَاقُونَ بَعْدَهُمْ فَكُلُّ سَبَقٍ لِأَذْنَى سَبْقِهِمْ تَبَعٌ
 يَسْمُونَ لِلْحَرْبِ تَبْدُو وَهِيَ كَالْحَاةِ إِذَا الزَّعَانِفُ مِنْ أَظْفَارِهَا خَشَعُوا^(١)
 لَا يَفْرَحُونَ إِذَا نَالُوا عَدُوَّهُمْ وَإِنْ أَصِيبُوا فَلَا خَوْرٌ وَلَا جَزَعٌ^(٢)
 كَانَتْهُمْ فِي الْوَغَى وَالْمَوْتُ مُكْتَنِعٌ أَسْوَدُ بَيْشَةٍ فِي أَرْسَائِهَا فَدَعٌ^(٣)

★ ★ ★

وقال أحدهم:

فَتَى مِثْلُ صَفْوِ الْمَاءِ لَيْسَ بِبَاطِلٍ عَلَيْكَ وَلَا مُهْدٍ مَلَامًا لِبَاطِلٍ
 وَلَا قَائِلٍ عَوْرَاءَ تُؤْذِي رَفِيقَهُ وَلَا رَافِعٍ رَأْسًا بِعَوْرَاءِ قَائِلٍ^(٤)
 وَلَا مُسْلِمٍ مَوْلَى لِأَمْرٍ يُصِيبُهُ وَلَا خَالِطٍ حَقًّا مُصِيبًا بِبَاطِلٍ
 وَلَا رَافِعٍ أُحْدُوثةَ السُّوءِ مُعْجَبًا بِهَا بَيْنَ أَيْدِي الْمَجْلِسِ الْمُتَقَابِلِ
 تَرَى أَهْلَهُ فِي نِعْمَةٍ وَهُوَ شَاحِبٌ طَوَى الْبَطْنِ مِخْمَاصِ الضُّحَى وَالْأَصَائِلِ^(٥)

★ ★ ★

-
- (١) كَالْحَاةِ: عابسة. الزعانف: ج الزعنفة، وهو من الرجال القصير. خشعوا: فزعوا.
 (٢) نالوا عدوهم: انتصروا عليه. أصيبوا: هزموا. خور: ضعف.
 (٣) الوغى: الحرب. مكتنع: حاضر. بيشة: موضع تكثر فيه الأسود. الفدع: الاعوجاج.
 (٤) العوراء من القول: الفاحش.
 (٥) الأحدث: ما يتحدث به.
 (٦) طوى البطن: ضامره. مخماص: من المخمصة أي الجوع.

قال عمرو بن كميل في مدح عمرو بن ذكوان:

يَسْرُكَ مَظْلُومًا وَيَرْضِيكَ ظَالِمًا وَكُلُّ الَّذِي حَمَلْتَهُ فَهُوَ حَامِلُهُ
أَخُو الْجِدِّ إِنَّ جَدَّ الرَّجَالِ وَشَمَّرُوا وَذُو بَاطِلٍ إِنَّ شِئْتَ أَلْهَاكَ بَاطِلُهُ

★ ★ ★

وقال أحدهم في مدح آل المهلب:

آلُ الْمُهَلَّبِ قَوْمٌ خُوِّلُوا شَرَفًا مَا نَالَهُ عَرَبِيٌّ لَا وَلَا كَادًا^(١)
لَوْ قِيلَ لِلْمَجْدِ حَدٌّ عَنْهُمْ وَخَالِهِمْ بِمَا أَحْتَكَمْتَ مِنَ الدُّنْيَا لَمَّا حَادَا^(٢)
إِنَّ الْمَكَارِمَ أَرْوَاحٌ يَكُونُ لَهَا آلُ الْمُهَلَّبِ دُونَ النَّاسِ أَجْسَادًا

★ ★ ★

وقال زياد الأعجم في مدح عبدالله بن الحشرج:

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالْمُرُوءَةَ وَالنَّدَى فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرِجِ
مَلِكٌ أَغْرَ مُتَوَجِّحٌ ذُو نَائِلٍ لِلْمُعْتَفِينَ يَمِينُهُ لَمْ تَشْنَجِ^(٣)

(١) خُوِّلُوا: ملكوا.

(٢) خالهم: تخلص عنهم.

(٣) النائل: العطية. المعتفون: المحتاجون. تشنج: تتقبض.

يا خَيْرَ مَنْ صَعَدَ الْمَنَابِرَ بِالتَّقَى بَعْدَ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى الْمُتَحَرِّجِ^(١)
لَمَّا أَتَيْتُكَ رَاجِيًا لِنَوَالِكُمْ أَلْفَيْتُ بَابَ نَوَالِكُمْ لَنْ يُرْتَجَّ^(٢)

★ ★ ★

وقال ابن عقيل في مدح بني دارم:

بَنِي دَارِمٍ إِنْ يَفْنَ عُمْرِي فَقَدْ مَضَى حَيَاتِي لَكُمْ مِنِّي ثَنَاءٌ مُخَلَّدُ
بَدَأْتُمْ فَأَحْسَنْتُمْ فَأَثْنَيْتُ جَاهِدًا وَإِنْ عُدْتُمْ أَثْنَيْتُ وَالْعَوْدُ أَحْمَدُ

★ ★ ★

وقال محمد بن عبدالله بن مسلم المعروف بابن المولى في مدح
يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب والي مصر من قبل أبي جعفر
المنصور:

وَإِذَا تُبَاعُ كَرِيمَةٌ أَوْ تُشْتَرَى فَسِوَاكَ بَائِعُهَا وَأَنْتَ الْمُشْتَرِي^(٣)
وَإِذَا تَوَعَّرْتَ الْمَسَالِكَ لَمْ يَكُنْ مِنْهَا السَّبِيلُ إِلَى نَدَاكَ بِأَوْعَرِ^(٤)
وَإِذَا صَنَعْتَ صَنِيعَةً أَثْمَمْتَهَا بِيَدَيْنِ لَيْسَ نَدَاهُمَا بِمُكَدَّرِ^(٥)
وَإِذَا هَمَمْتَ لِمُعْتَفِيكَ بِنَائِلٍ قَالَ النَّدَى فَأَطَعْتَهُ لَكَ أَكْثَرُ
يَا وَاحِدَ الْعُرْبِ الَّذِي مَا إِنْ لَهُمْ مِنْ مَذْهَبٍ عَنْهُ وَلَا مِنْ مُقْصِرِ

★ ★ ★

(١) المتحرج: المجانب للإثم.

(٢) النوال: العطاء. يرتج: يغلق.

(٣) الكريمة: الفعل الحميد.

(٤) المسالك: الطرق، توعرت: صارت وعرة. نذاك: عطاؤك وكرمك.

(٥) الصنعة: هنا الفعل الحميد. المكدر: فيه منة.

وقال مروان بن أبي حفصة في مدح بني مطر:

هُمْ يَمْنَعُونَ الْجَارَ حَتَّى كَأَنَّمَا لِحَارِهِمْ بَيْنَ السَّمَائِينَ مَنَزِلٌ^(١)
وَلَا يَسْتَطِيعُ الْفَاعِلُونَ فِعَالَهُمْ وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي النَّائِبَاتِ وَأَجْمَلُوا^(٢)
بِهَالِيلٍ فِي الْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ كَأَوَّلِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلٌ^(٣)
هُمْ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دَعُوا أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطُوا أَطَابُوا وَأَجَزَلُوا

★ ★ ★

وقال أيضاً:

تَجَنَّبَ « لَا » فِي الْقَوْلِ حَتَّى كَأَنَّهُ حَرَامٌ عَلَيْهِ قَوْلُ « لَا » حِينَ يُسْأَلُ
تَشَابَهُ يَوْمَاهُ عَلَيْنَا فَأَشْكَلَا فَلَا نَحْنُ نَدْرِي أَيُّ يَوْمَيْهِ أَفْضَلُ
أَيُّومُ نَدَاهُ الْغَمْرِ أَمْ يَوْمٌ بِأَسِيهِ وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا أَغْرٌ مُحَجَّلٌ^(٤)

★ ★ ★

وقال أبو تمام في مدح محمد بن عبد الملك الزيات:

هُوَ الْبَحْرُ مِنْ أَيِّ النِّوَاحِي أُتِيَتْهُ فَلَجَّتْهُ الْمَعْرُوفُ وَالْجُودُ سَاحِلُهُ
كَرِيمٌ إِذَا مَا جِئْتَ لِلْعَرَفِ طَالِبًا حَبَاكَ بِمَا تَحْوِي عَلَيْهِ أَنْسَامُهُ
فَلَوْ لَمْ تَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ نَفْسِهِ لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ اللَّهَ سَائِلُهُ

★ ★ ★

(١) السماكان: نجمان وهما الرامح والأعزل.

(٢) النائبات: المصائب.

(٣) البهاليل: ج البهلول وهو السيد.

(٤) الغمر: معظم الماء.

ملحق :

فصول من كتاب « اللطائف والظرائف »
للشعالبي في مدح بعض الصفات المعنوية

باب مدح العقل

قال الله تعالى في شأن تعظيم العقل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَأْتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١)، وقال جل ذكره: ﴿اتَّقُونَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٢)، وقال عز اسمه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾^(٣). وقال النبي ﷺ: «الناس يعملون الخيرات، وإنهم يعطون أجورهم يوم القيامة على قدر عقولهم»، وقيل له عليه الصلاة والسلام في الرجل الحسن العقل الكثير الذنوب، فقال: «ما من آدمي إلا وله خطايا وذنوب، فمن كانت سجيته العقل لم تضره ذنوبه، لأنه كلما أخطأ لم يلبث أن يتدارك ذلك بتوبة تمحو ذنوبه وتدخله الجنة».

وقال سعيد بن المسيب في قوله عز وجل: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾^(٤) يعني ذوي عقل.

(١) البقرة: ١٦٤.

(٢) البقرة: ١٩٧.

(٣) آل عمران: ١٣ والنور: ٤٤. وقد وهم في المطبوعة فوضع الأبواب بدل الأبصار. أما إذا أراد الأبواب فالآية هي: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ يوسف: ١١١.

(٤) الطلاق: ٢.

وقال مجاهد في قوله تعالى جده: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾^(١) أي عقل.

وقال الضحاك في قوله جل ثناؤه: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾^(٢) أي عاقلًا.

وقال الحسن: العقل هو الذي يهدي إلى الجنة ويحمي عن النار لقوله عز وجل حكاية عن أهل النار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(٣).

★ ★ ★

باب مدح الأدب

قال بزرجمهر: ليت شعري أي شيء أدرك من فاته الأدب، وأي شيء فات من أدرك الأدب. وقال ابن عائشة القرشي: أهل الأدب هم الأكثرون وإن قلوا، ومحل الأنس أين حلوا. وقال خالد بن صفوان لابنه: يا بني، الأدب بهاء الملوك ورياش السوق، والناس بين هاتين، فتعلمه تجده حيث تحب. وقيل: الأدب وسيلة إلى كل فضيلة، وذريعة إلى كل شريعة. وقلت في الكتاب المبهم: حلية الأدب لا تخفى وحرمة لا تُجفى.

وقال البريدي:

ليس الفتى كلُّ الفتى إلا الفتى في أدبه
وبعض أخلاق الفتى أولى به من نسبه

وقال بعض الظاهرية: لو علم الجاهلون ما الأدب، لأيقنوا أنه هو الطرب.

(١) ق: ٣٧.

(٢) يس: ٧٠.

(٣) عيون الأخبار ٣: ٢٨٠.

وقال حكيم لابنه: يا بني، عز السلطان يوم لك ويوم عليك، وعز المال وشيك ذهابه، جدير انقطاعه وانقلابه، وعز الحسب إلى خمول ودثور وذبول، وعز الأدب راتب واصب لا يزول بزوال المال، ولا يتحول بتحول السلطان. ويُقال: من قعد به حسبه، نهض به أدبه. وقال ابن المعتز: لست تعدم من الأديب كرمًا من طبعه، أو تكرمًا من أدبه، وقال أيضًا: الأدب صورة العقل، فحسن عقلك كيف شئت.



باب مدح الشعر والشعراء

كان يُقال: الشعر ديوان العرب، ومعدن حكمتها وكنز أدبها. ويُقال: الشعر لسان الزمان، والشعراء للكلام أمراء. وقال بعض السلف: الشعر أدنى مروءة السرى، وأسرى مروءة الدنى. وقال آخر: الشعر جزل من كلام العرب تقام به المجالس، وتستحج به الحوائج، وتشفى به السخائم. ويُقال: المدح مهزة الكرام وإعطاء الشاعر من بر الوالدين. وقال بعضهم: أنصف الشعراء، فإن ظلامتهم تبقى، وعقابهم لا يفنى، وهم الحاكمون على الحكام. وقال آخر: الشعر الجيد هو السحر الحلال، والعذب الزلال.

وقال النبي ﷺ: «إنَّ من الشعر لحكمة، وإن من البيان لسحراً». وعنه عليه الصلاة والسلام: «أصدق كلمة قالها الشاعر قول لبيد: ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلٌ». وقال له النبي، عليه الصلاة والسلام: صدقت. ثم قال: وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائلٌ. قال النبي، عليه الصلاة والسلام: كذبت، نعيمُ الجنة لا يزول.

وقال بعضهم: ربَّ بيتٍ شعريٍّ خيرٌ من بيت تبر. وكان عمر، رضي الله عنه، لا يعرض له أمرٌ إلا أنشد فيه بيت شعر. وكان يُقال: النثر يتطاير تطاير الشرر، والشعر يبقى بقاء النقش في الحجر. وقال آخر: الشعر صوب العقول، وكلام

الفحول . وقيل لحمزة بن بيض : من أشعر الناس ؟ قال : من إذا قال أسرع ، وإذا وصف أبدع ، وإذا مدح رفع ، وإذا هجا وضع .

★ ★ ★

باب مدح التجارة

قد ذكر الله تعالى التجارة في القرآن حيث قال :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾^(١) . وقال عز اسمه : ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾^(٢) . وقال جل ذكره : ﴿وَأَخْرَوْنَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾^(٣) .

وقال النبي عليه الصلاة والسلام : «أطيب ما يأكل الرجل من كسبه» ، والكسب في القرآن التجارة . وقال عليه الصلاة والسلام : «التاجر الصدوق مع النسيين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً» . وقال عليه الصلاة والسلام : «تسعة أعشار الرزق في التجارة . وكان صلى الله عليه وسلم برهة من الدهر تاجراً ، وشخصاً مسافراً ، وباع واشترى حاضراً ، ولاشتهار أمره في ذلك قال المشركون : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، فأوحى الله تعالى إليه : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾^(٤) ، فأخبر جل اسمه أن الأنبياء قبله قد كانت لهم تجارات وصناعات .

(١) النساء : ٢٩ .

(٢) البقرة : ٢٧٥ .

(٣) المزمل : ٢٠ .

(٤) الفرقان : ٢٠ .

وكان عمر، رضي الله تعالى عنه، يقول: ما ميتة بعد القتل في سبيل الله أحب إليّ من أن أموت بين شعبتي رحلي، أضرب في أرض الله، وابتغي من فضل الله. وكان بعض السلف يقول: الأسواق موائد الله في أرضه، فمن أتاها أصاب منها. وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾^(١). يعني التجارة في الأسواق. وقيل: التجارة إماراة، والأرباح توفيقات.

★ ★ ★

باب مدح القناعة

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾^(٢). هي القناعة. وقال بعض الحكماء لابنه: يا بني، العبد حر إذا قنع، والحر عبد إذا طمع. وكان يُقال: انت العزيز ما التحفت بالقناعة. وقيل: القانع بما قسم الله في حداثق النعيم.

ويُقال: أخفض الخفض رِضًا المرء بحظّه. وقال بعضهم: من لم يقنع بالقليل، لم يكتف بالكثير. ومن فصول ابن المعتز: أعرف الناس بالله من رضي بما قسم له. وقال غيره: من قنع بما لله استراح وأراح. وقال أبو العتاهية:

إِنْ كَانَ لَا يَغْنِيكَ مَا يَكْفِيكَ فَكُلْ مَا فِي الْأَرْضِ لَا يُغْنِيكَ
وقال أيضًا:

قَنَّعَ النَّفْسَ بِالْكَفَافِ وَإِلَّا طَلَبْتُ مِنْكَ فَوْقَ مَا يَكْفِيهَا

★ ★ ★

(١) البقرة: ٢٦٧.

(٢) النحل: ٩٧.

باب مدح الصمت

من حكم لقمان رحمة الله عليه: الصمت حكمة وقليل فاعله. وكان يُقال: الصمت أنفع للناس، والسكون أنفع للطير لأن الطير إذا نَبَشَ قُبْضَ وَحُبْس. وقال بعض السلف: الندم على الصمت خيرٌ من الندم على القول. ومن فصول ابن المعتز: من أخافه الكلام أجاره الصمت. وقال أيضاً: الخطأ بالصمت يُخْتَم، والخطل بمثله لا يكتَم. وقال آخر:

الصمتُ يُكْسِبُ أَهْلَهُ صِدْقَ الْمَوَدَّةِ وَالْمَحَبَّةِ
والقولُ يَسْتَدْعِي لِيَصَا حِيَةَ الْمَذَمَّةِ وَالْمَسَبَّةِ
فاتركْ كلامًا لاغِيَا ولا يكنْ لك فِيهِ رَغْبَةُ

وقيل: أربع كلمات صدرت عن أربعة ملوك؛ كأنما رُميت عن قوس واحدة، قال كسرى: لم أندم على ما لم أقل، وندمت على ما قلت مراراً. وقال قيصر: إني على رد ما لم أقل أقدرُ مني على رد ما قلت. وقال ملك الصين: إذا تكلمت بكلمة ملكتني، وإذا لم أتكلم بها ملكتها. وقال ملك الهند: عجبتُ لمن يتكلم بالكلمة، إن رُفِعَتْ ضرَّتُهُ، وإن لم تُرَفَعْ ما نفعته.

★ ★ ★

باب مدح الصبر

قال النبي ﷺ: «لم يؤت الناس خيراً من الصبر والمعافاة». وقال أيضاً عليه السلام: «لم نزل نستزيد للصابرين حتى نزلت: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١). وقال عليه السلام: «عليكم بالصبر، فإنه لا إيمان لمن لا

(١) الزمر: ١٠

صبر له». وقال أيضاً: «الصبر ثلاثة: صبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر على المعصية. شعر:

تَصْبِرُ وَلَا تُبْدِ التَّضَعُّعَ لِلْعِدَا ولو قَطَّعت في الجسم منك البسواترُ
سرورُ الأعداي أن تراك بذلةٍ ولكنها تَغْتَسِمُ إذ أنت صابرُ
ولبعضهم:

بنى الله للأخيار بيتاً سماؤه همومٌ وأحزانٌ وحيطانهُ الضرُّ
وأدخلهم فيه وأغلق بابَه وقال لهم مفتاح بابكم الصبرُ
وكان ينشد:

إني وجدتُ وخيرُ القولِ أصدقه للصبرِ عاقبةٌ محمودَةٌ الأثرِ
وقلَّ من جدَّ في أمرٍ يحاوله فاستصحبَ الصَّبْرَ إلَّا فازَ بالظفرِ

★ ★ ★

باب مدح الحلم

كان يُقال: الحلم حجابُ الآفات. وقال حكيم: حلمٌ ساعةٍ يردُّ سبعين آفة. وقال بعض السلف: الحلم أجلُّ من العقل، لأن الله تعالى وصف نفسه به. وقيل: حسبُ الحليم أنَّ الناسَ أنصاره على الجاهل، ومن ملك غضبه احترز من عدوه. وقال الحسن رحمة الله عليه: ما بعث الله نبياً إلى قومٍ إلَّا بعثه وأمره بالحلم. وكان الأحنف يقول: ما أضيف شيء إلى شيء أحسن من علمٍ إلى حلم.

كان يقول: من لم يصبر على كلمة واحدة، سمع كلمات.

ومن أحسن ما قيل في الحلم قول الشاعر:

لَنْ يَبْلُغَ الْمَجْدَ أَقْوَامٌ وَإِنْ كَرُمُوا حَتَّى يَذِلُّوا وَإِنْ عَزُّوا لِأَقْوَامٍ
وَيُشْتَمُوا فَتَرَى الْأَلْوَانَ مَشْرِقَةً لَا عَفْوَ ذَلٍ وَلَكِنْ عَفْوَ أَحْلَامٍ

★ ★ ★

باب مدح المشورة

روي عن النبي ﷺ أنه قال: «المستشار بالخيار، وإن شاء قال، وإن شاء سكت». وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً: «المستشار مؤتمن». وقال الحسن البصري: إن الله تعالى أمر نبيه عليه السلام بالمشورة، لا من حاجة منه إلى آرائهم، وإنما أراد عز اسمه أن يعلمنا ما في المشورة من الفضيلة، حيث قال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾^(١)، يعني أن الإنسان لا يستغني عن مشورة نصيح له، كما أن القوادم من ريش الجناح تستعين بالخوافي منه. قال بشار:

إِذَا بَلَغَ الرَّأْيُ الْمَشُورَةَ فَاسْتَعِينَ بِحَزْمِ نَصِيحٍ أَوْ نَصَاحَةِ حَازِمٍ
وَلَا تَجْعَلِ الشُّورَى عَلَيْكَ غَضَاضَةً فَرِيشُ الْخَوَافِي تَابِعٌ لِلْقَوَادِمِ

قال الأصمعي: قلت لبشار: رأيت رجال الرأي يتعجبون من أبياتك في المشورة، فقال: أو ما علمت أن المشاور بين إحدى الحسنين، صوابٌ يفوز بثمرته، أو خطأ يشارك في مكروهه، فقلت له: أنت والله في هذا الكلام أشعر منك في شعرك. وقال الجاحظ: المشورة لقاح العقول، ورائد الصواب، والمستشير على طرف النجاح، واستنارة المرء برأي أخيه، من عزم الأمور وحزم التدبير، وقد أمر الله تعالى أكمل الخلق لباً، وأولاهم بالإصابة عزمًا، فقال لرسوله الكريم عليه السلام في كتابه الكريم: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾^(٢).

(١) آل عمران: ١٥٩.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

وقال حكيم: إذا شاورتَ العاقل صار عقله لك. ويُقال: أول الحزم المشورة. وقال العتابي: المشورة عين الهداية، وقد خاطرَ من استغنى برأيه.

★ ★ ★

باب مدح التَّأْنِي

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾^(١) الآية، يعني فتثبتوا، وهو أبين. وقال حكيم: ينبغي للوالي أن يتثبت فيما أنهي إليه، ولا يتعجل، ويتأني ويتمهل، حتى ينظر ويستكشف الحال، ويأخذ بأدب سليمان عليه السلام حيث قال: ﴿سَنَنْظُرُ أَصْدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾^(٢). وفي الخبر: «التأني من الله والعجلة من الشيطان». ويُقال: الأناة حصن السلامة، والعجلة مفتاح الندامة. وقيل: التأني مع الخيبة، خيرٌ من العجلة مع النجاح. وقال آخر: التأني في الأمور أول الحزم، والتسرع إليها عين الجهل. وقال النابغة:

الرَّفْقُ يُمِّنُ وَالْأَنَاءُ سَعَادَةٌ فَتَّانٌ فِي أَمْرِ تَلَاقٍ نَجَاحَا

وقال القطامي:

قد يدركُ الْمُتَأَنِّي بعضَ حاجتِهِ وقد يكونُ مع المُسْتَعَجِلِ الزَّلَلُ

★ ★ ★

(١) الحجرات: ٦.

(٢) النمل: ٢٧.

باب مدح الشجاعة

في الخبر: إن الله يحب الشجاعة ولو على قتل حية أو عقرب». وكتب أنوشروان إلى وكلائه: عليكم بأهل الشجاعة والسخاء، فإنهم أهل حسن الظن بالله تعالى. وكان يُقال: الشجاع موقى، والجبان ملقى. ويقال: الشجاع محب حتى إلى عدوه، والجبان مبغض حتى إلى أمه، وقال بعض الحكماء: قوة النفس أبلغ من قوة الجسد، وقال الشاعر:

يَفِرُّ الْجَبَانُ مِنْ أَبِيهِ وَأُمِّهِ ويحمي شجاعُ القومِ من لا يناسبُهُ
وقال أبو الطيب المتنبي:

يَرَى الْجُبْنَاءُ أَنَّ الْعِزَّ عَقْلٌ وتلك خديعةُ الطبعِ اللّثيمِ
وَكُلُّ شَجَاعَةٍ فِي الْمِرْيَةِ تُغْنِي وَلَا مِثْلَ الشَّجَاعَةِ فِي الْحَكِيمِ



باب مدح الجود

في الخبر: «إن الله تبارك وتعالى يحب الجواد لأنه جوادٌ كريم» وفيه أيضًا: «الجود من أخلاق أهل الجنة». ويُقال: الجودُ غايةُ الزهدِ، والزُّهدُ غايةُ الجودِ. وقال غيره: الجود أن تكون بمالك متبرِّعًا، ومن مال غيرك متورِّعًا.

وقال علي بن عبد الله: الناس في الدنيا الأسخياء، وفي الآخرة الأتقياء. وكان خالد بن عبد الله القسري يقول: تنافسوا في المغانم وسارعوا إلى المكارم، واكتسبوا بالجود حمدًا ولا تكتسبوا بالمال ذمًا، ولا تعدوا بمعروف لم تجعلوه، واعلموا أن حوائج الناس نعمة من الله عليكم، فلا تملوها فتعود نقمًا. وقال الشاعر:

لَا تَزْهَدَنَّ فِي اصْطِنَاعِ الْعُرْفِ تَفْعَلُهُ إِنَّ الَّذِي يَحْرُمُ الْمَعْرُوفَ مُحْرَمٌ